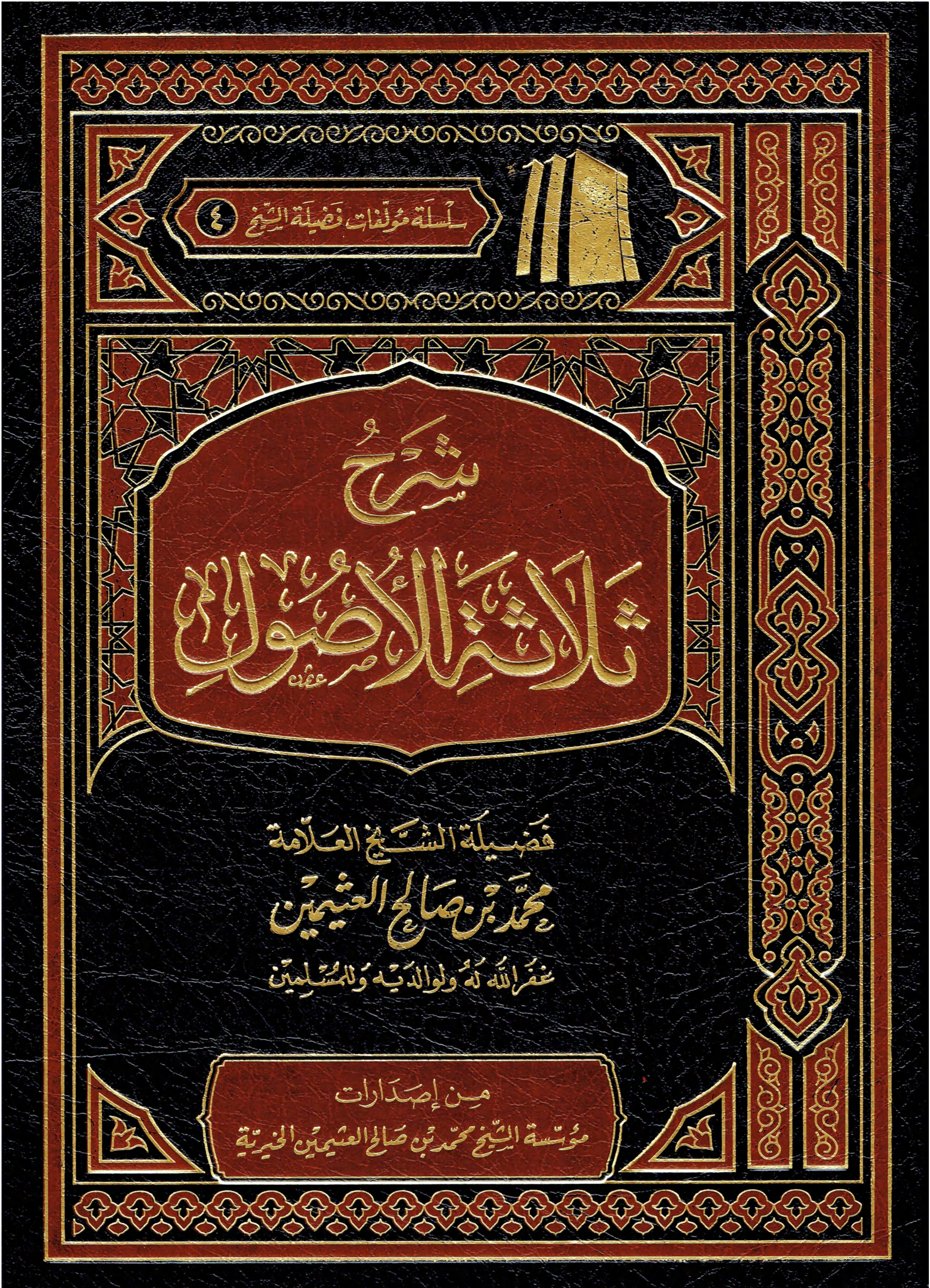
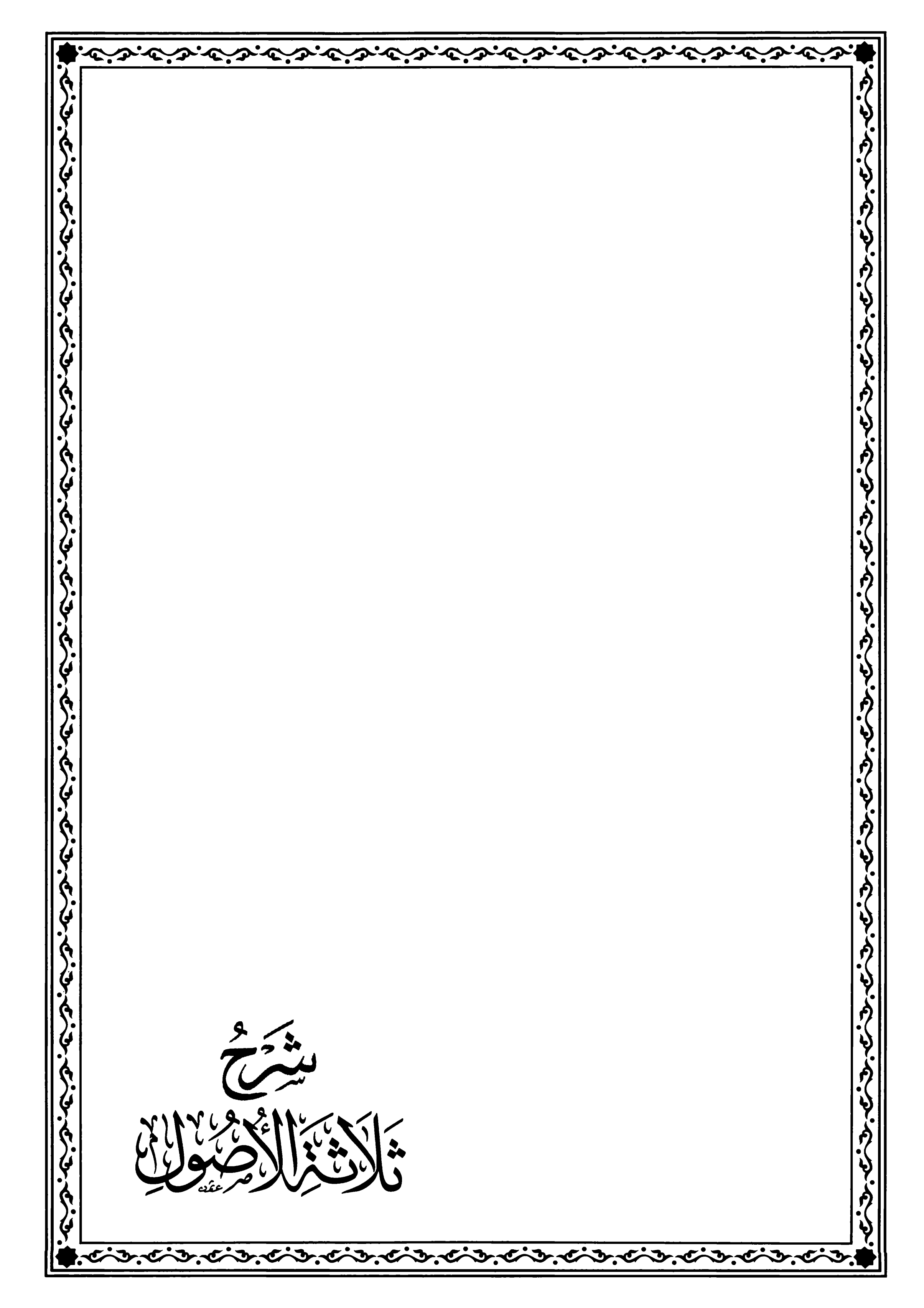

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ ٤
شرح
ثلاثة الأصول
فضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


شرح
ثلاثة الأصول

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية. ١٤٣٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

شرح ثلاثة أصول/ محمد بن صالح العثيمين؛-الرياض، ١٤٣٥هـ

١٧٦ص؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ٤)

ردمك: ٨-١٠-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الإسلامية. أ- العنوان

ب- السلسلة

ديوي ٢٤٠ ١٤٣٥/٧٠٢٣

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٧٠٢٣

ردمك: ٨-١٠-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الحادية والعشرون

١٤٤٥هـ

يُطلب الكتاب من:

مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّة

المملكة العربية السعودية

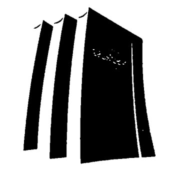
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدُّرَّة الدولية للطباعة والتوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف وفاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٤)

شرح ثلاثة الأصول

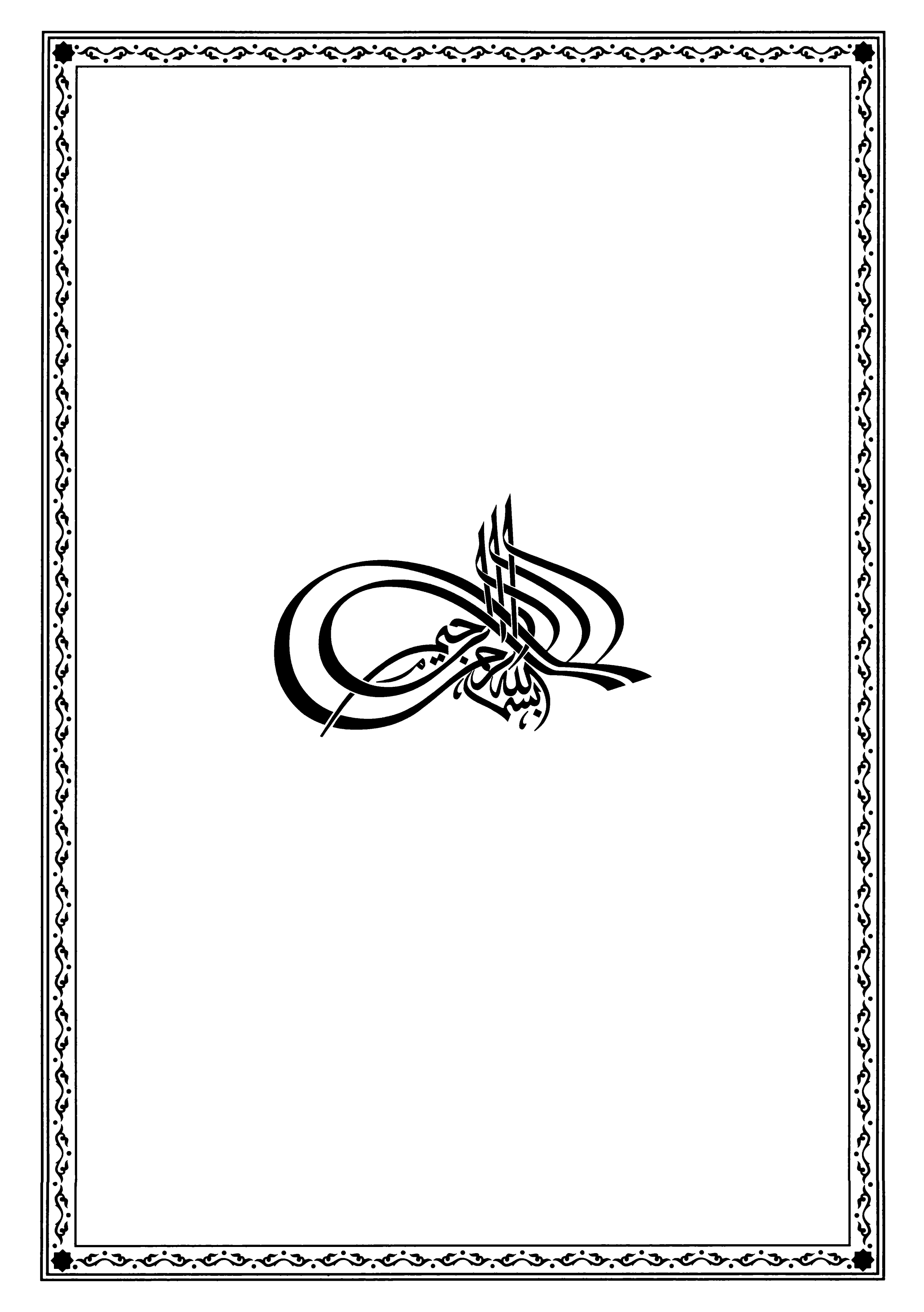
لفضيلة الشيخ العلامة

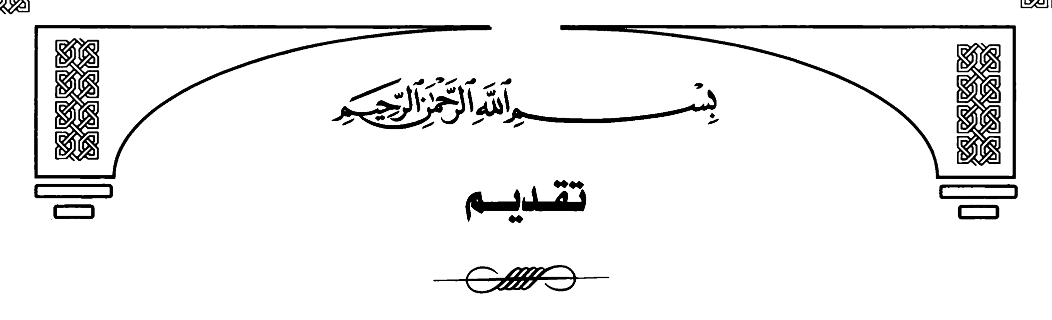
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نَحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله من شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شَريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالة، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حقَّ جِهادِهِ حتَّى أتاهُ اليَقينُ، فصَلواتُ الله وسلامُه عليهِ، وعلَى آلِه وأصحابِه، ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فلقَد كانَ مِن الأعمال الجَليلة لصاحِب الفَضيلة العلَّامة شيخِنا الوالِد محمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين -رحمَهُ اللهُ تعالى-، عِنايتُه البالغةُ بتَدْرِيس متُون العقيدة وشَرْحِها والتَّعْليقِ عَلَيها وتَقْريبِها لطُلَّاب العِلم والدَّارسِين، وذلِك لبَيان مَنْهج السَّلف الصَّالح وتَقْرير العَقِيدة الصَّحيحة وتَرْسيخِها.

ومِن حِرْصِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في هَذا المَقامِ تَناولَ -بالشَّرْحِ والتَّقْرِيرِ- رسالةَ (ثَلاثة الأُصُول) التِي أَلَّفها شيخُ الإسلامِ محمَّد بنُ عبدِ الوهَّاب المتوفَّى عامَ (١٢٠٦هـ)[1]، تغمَّده اللهُ بواسِع رحمَتِه ورِضوانِه وأَسْكنَهُ فَسِيحَ جنَّاتِه، وجزاهُ عنِ الإسلامِ والمسلمينَ خيرَ الجَزاء.

---

(١) ترجم له الكثيرون ، انظر: الأعلام للزِّرِكْلي (٦/ ٢٥٧)، عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بِشْر (١/ ٦)، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام لابن غنَّام (١/ ٢٠٨، ٢/ ٩٠٠).

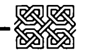
وقَد قامَ الشَّيخُ/ فَهْد بنُ ناصِر السُّليمان -أثابَهُ اللهُ تعالَى- بتَفْريغ المادَّة الصوتيَّة وإعدادِها للنَّشْر، وعَرْضها علَى فَضِيلة شَيخِنا الشارِح -رحمَهُ اللهُ تعالَى-، ثُمَّ طُبع الكِتاب عامَ (١٤١٤هـ)، وتوالَتْ طَبَعاتُه -بفَضْل الله تعالى- بعدَ ذلِك.

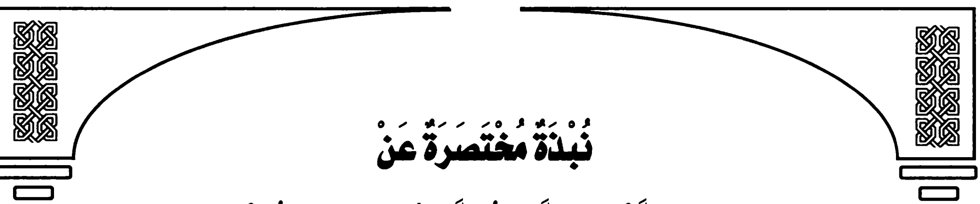
نَسْألُ اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوَجْهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمُسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عَبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٦ مُحَرَّم ١٤٣٨هـ







نُبْذَةٌ مُخْتَصَرَةٌ عَنْ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ العَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين
١٣٤٧- ١٤٢١هـ

نَسَبُهُ وَمَوْلِدُهُ:

هُو صاحِبُ الفضِيلةِ الشَّيخُ العالِـمُ المحقِّق، الفَقِيه المفسِّر، الوَرِع الزَّاهد، مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آل عُثَيْمِين مِنَ الوهبَةِ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.

وُلِد فِي ليلةِ السَّابعِ والعِشرينَ مِن شَهرِ رمَضانَ المبارَك، عامَ (١٣٤٧هـ) فِي عُنَيْزَةَ -إِحدَى مُدن القَصِيم- فِي المملَكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

نَشْأَتُه العِلْمِيَّةِ:

أَلحقَهُ والدُه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِيتعلَّمَ القُرآنَ الكَريمَ عندَ جَدِّه مِن جِهةِ أُمِّه المعلِّم عَبْد الرَّحمن بن سُلَيْمان الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، ثمَّ تعلَّم الكِتابةَ، وشيئًا مِن الحِسابِ، والنُّصُوص الأَدبيَّة؛ فِي مدرسةِ الأُستاذ عَبْدالعزيزِ بن صالِحِ الدَّامِغ -رَحِمَهُ اللهُ-، وذلكَ قبلَ أنْ يَلْتَحِقَ بمَدْرسة المعلِّم عليِّ بنِ عَبْدالله الشّحيتان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حيثُ حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ عندَه عن ظَهْرِ قَلْبٍ ولـمَّا يتجاوز الرَّابعةَ عَشْرَةَ مِن عُمُرِه بَعْدُ.

وبتَوْجيهٍ مِن والدِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَقْبَلَ على طلَب العِلم الشَّرعيِّ، وكانَ فضيلةُ الشَّيخِ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمن بنُ ناصرِ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّس العُلوم

الشَّرعيَّة والعَربيَّة فِي الجامِع الكَبِير بعُنَيْزَةَ، وقَد رَتَّب اثنَيْنِ[١] مِن طَلَبته الكِبار لِتَدريسِ المُبتدِئينَ مِنَ الطَّلَبة، فانضَمَّ الشَّيْخُ إلَى حَلقةِ الشَّيْخ محمَّدِ بنِ عَبْد العزيزِ المطوّع -رَحِمَهُ اللهُ- حتَّى أَدْرَكَ مِنَ العِلم -فِي التَّوْحِيد، والفِقه، والنَّحو- ما أَدْرَكَ.

ثُمَّ جَلَس فِي حَلقة شَيْخِه العلَّامَة عَبْد الرَّحمن بنِ ناصرٍ السّعْديِّ رَحِمَهُ اللهُ، فدرَس عليه فِي التّفسِير، والحَديث، والسِّيرة النَّبويَّة، والتَّوحِيد، والفِقه، والأُصول، والفَرائِضِ، والنَّحْو، وحَفِظَ مُختَصراتِ المُتُونِ فِي هذِهِ العُلُوم.

ويُعَدُّ فضيلةُ الشَّيْخ العلَّامَة عَبْدُ الرحمن بنُ ناصرٍ السّعْديُّ -رَحِمَهُ اللهُ- هُو شيخَه الأَوَّلَ؛ إِذْ أَخذ عَنْهُ العِلْمَ -مَعْرفةً وطَرِيقةً- أَكْثَرَ مِمَّا أَخذ عَنْ غَيرِهِ، وتَأَثَّر بمَنْهجِه وتَأْصِيلِه، وطَرِيقةِ تَدْرِيسِه، واتِّباعِه لِلدَّلِيل.

وعِندَما كانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرحمن بنُ عليٍّ بن عـودانَ -رَحِمَهُ اللهُ- قـاضيًا فِي عُنَيْزَةَ قـرَأَ عليه فِي عِلـم الفَرائضِ، كـما قـرأَ علَى الشَّيْخ عَبْدِ الـرَّزَّاقِ عَفِيفِي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي النَّحو والبَلاغَة أَثناءَ وُجودِهِ مُدَرِّسًا فِي تِلكَ المَدِينة.

ولـمَّا فُتِحَ المَعْهَدُ العِلْمِيُّ فِي الرِّياضِ أَشارَ عليه بعضُ إِخْوانِه[٢] أَنْ يَلْتَحِقَ بِهِ، فاستَأْذَنَ شيخَه العلَّامَةَ عَبْدَ الرَّحمنِ بنَ ناصرِ السَّعْدِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ- فأَذِنَ له، والتَحق بالمَعْهَدِ عامَيْ (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

ولقَدِ انتفعَ -خلالَ السَّنتَيْن اللَّتَيْن انتظَم فِيهما فِي مَعهدِ الرِّياضِ العِلْمِيِّ- بالعُلَماءِ الَّذين كانُـوا يُدرِّسـونَ فِيه حِـينذَاكَ، ومِنْهُمْ: العـلَّامَةُ المُفَسِّـرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الأَمِين الشّنْقِيطِيُّ، والشَّيْخُ الفَقِيه عَبْدُ العزيزِ بنُ ناصرِ بنِ رشيدٍ، والشَّيْخُ المُحدِّثُ عَبْدُ الرحمنِ الإِفْرِيقِيُّ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالَى-.

---

(١) هما الشَّيْخان محمد بن عَبْد العزيز المطوع، وعلي بن حمد الصالحي رحمهما الله تَعالَى.
(٢) هو الشَّيْخ علي بن حمد الصَّالحي رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى.

وفِي أَثْناءِ ذَلكَ اتَّصلَ بسَماحةِ الشَّيْخِ العلَّامةِ عَبْدِ العزيزِ بن عَبْدِ الله بنِ بَازٍ -رَحِمَهُ اللهُ-، فقرَأ عليه فِي المسجِد: مِن صَحِيح البُخارِيِّ، ومِن رَسائِل شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ؛ وانتفَع به فِي عِلم الحَدِيث، والنَّظر فِي آراءِ فُقهاءِ المَذاهِب والمُقارَنةِ بينَها، ويُعدُّ سماحةُ الشَّيْخِ عَبْدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رَحِمَهُ اللهُ- هو شَيْخَهُ الثَّانِي فِي التَّحْصِيلِ والتَّأثُّرِ بِهِ.

ثُمَّ عادَ إِلَى عُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ)، وصارَ يَدْرُسُ علَى شَيْخِهِ العلَّامةِ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ ناصرٍ السّعْدِيِّ، ويُتابعُ دِراسَتَهُ انتِسَابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ جامِعَةِ الإِمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإِسْلامِيَّةِ، حتَّى نالَ الشَّهادَةَ العالِيَةَ.

تَدْرِيسُهُ:

تَوَسَّمَ فِيهِ شَيْخُهُ النَّجابَةَ وسُرْعةَ التَّحْصِيلِ العِلْمِيِّ فشَجَّعَهُ علَى التَّدرِيسِ وهُوَ ما زالَ طَالِبًا فِي حَلقتِه، فبَدَأ التَّدرِيسَ عامَ (١٣٧٠هـ) فِي الجامِع الكَبيرِ بعُنَيْزَةَ.

ولَـمَّا تخرَّجَ فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ فِي الرِّياضِ عُيِّنَ مُدَرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ بعُنَيْزَةَ عامَ (١٣٧٤هـ).

وفِي سَنَةِ (١٣٧٦هـ) تُوُفِّيَ شَيْخُهُ العلَّامةُ عَبْدُ الرَّحمنِ بنُ ناصرٍ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فتَوَلَّى بعدَه إمامَةَ الجامِعِ الكَبيرِ فِي عُنَيْزَةَ، وإمامَةَ العِيدَيْنِ فِيها، والتَّدْرِيسَ فِي مكتبةِ عُنَيْزَةَ الوَطَنِيَّةِ التَّابعةِ لِلجامِعِ؛ وهِي التِي أَسَّسَها شيخُه -رَحِمَهُ اللهُ- عامَ (١٣٥٩هـ).

وَلَـمَّا كَثُرَ الطَّلبةُ، وصارَتِ المكتبةُ لا تَكْفِيهم؛ بدَأ فَضِيلةُ الشَّيْخ -رَحِمَهُ اللهُ- يُدرِّسُ فِي المسجِدِ الجامِعِ نَفْسِهِ، واجتمَعَ إِلَيْهِ الطُّلَّابُ وتَوافَدُوا مِنَ المملكَةِ وغيرِها؛ حتَّى كانُوا يَبْلُغونَ المِئاتِ فِي بعضِ الدُّرُوسِ، وهؤلاءِ يَدْرُسُونَ دِراسَةَ

تَحصيلٍ جادٍّ، لَا لِـمُجرَّدِ الاستِماعِ. وبَقِيَ علَى ذَلكَ -إمامًا وخَطيبًا ومُدرِّسًا- حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

بَقِيَ الشَّيْخُ مُدرِّسًا فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ مِن عامِ (١٣٧٤هـ) إِلَى عامِ (١٣٩٨هـ) عندَما انتقَلَ إِلَى التَّدرِيسِ فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ وأُصُولِ الدِّينِ بِالقَصِيمِ، التَّابِعَةِ لِجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودِ الإِسلامِيَّةِ، وظَلَّ أُستاذًا فِيها حتَّى وفاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وكانَ يُدرِّسُ فِي المسجِد الحَرامِ والمسجِد النَّبَوِيِّ، فِي مَواسِم الحَجِّ ورمَضانَ والإِجازاتِ الصَّيْفِيَّة، مُنذُ عامِ (١٤٠٢هـ) حتَّى وفاتِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وَللشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أُسلوبٌ تَعْليمِيٌّ فَريدٌ فِي جَودتِهِ ونَجاحِهِ، فهُو يُناقِشُ طُلَّابَهُ ويَتقبَّلُ أسئِلَتَهُم، ويُلقِي الدُّرُوسَ والمُحاضَراتِ بِهِمَّةٍ عالِيَةٍ ونَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ واثِقَةٍ، مُبْتَهِجًا بنَشْرِهِ لِلعِلْمِ وتَقْرِيبِهِ إِلَى النَّاسِ.

آثارُه العِلْمِيَّةُ:

ظَهَرَتْ جُهُودُهُ العَظِيمةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- خِلالَ أَكْثَرَ مِن خَمسِينَ عامًا مِنَ العَطاءِ والبَذْلِ فِي نَشْرِ العِلْمِ والتَّدْرِيسِ والوَعْظِ والإِرْشادِ والتَّوْجِيهِ وإِلْقاءِ المُحاضَراتِ والدَّعْوةِ إِلَى اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

ولقَدِ اهتَمَّ بالتَّأْلِيفِ، وتَحريرِ الفَتاوَى والأَجْوبة، التِي تَميَّزَتْ بالتَّأْصِيلِ العِلْمِيِّ الرَّصِينِ، وصدَرتْ لَهُ العَشَراتُ مِنَ الكُتُبِ والرَّسائِلِ والمُحاضَراتِ والفَتاوَى والخُطَبِ واللِّقاءاتِ والمَقالاتِ، كَما صدَرَ لَهُ آلافُ السَّاعاتِ الصَّوْتِيَّةِ التِي سَجَّلَتْ مُحاضَراتِه وخُطَبَهُ ولِقاءاتِهِ وبرامِجَهُ الإِذاعِيَّةَ ودُرُوسَهُ العِلْمِيَّةَ؛ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيم، والشُّرُوحاتِ المُتميِّزَةِ لِلحَدِيثِ الشَّرِيفِ والسِّيرَةِ النَّبوِيَّةِ، والمُتُونِ والمَنْظُوماتِ فِي العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ والنَّحْوِيَّةِ.

وَإنفاذًا لِلقَـواعِدِ والضَّـوابِطِ والتَّوْجِيهاتِ التِي قَرَّرهـا فَضيلتُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِنَشْرِ مُؤلَّفاتِه، ورَسائِلِه، ودُرُوسِه، ومُحاضراتِه، وخُطبِه، وفَتاواهُ، ولقاءاتِه؛ تَقُـوم مُؤسَّسةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةُ -بعَوْنِ اللهِ وتَـوْفِيقِه- بوَاجِبِ وشَرَفِ المَسْؤُوليَّةِ لإخْراجِ كافَّةِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ والعِنايَةِ بِهَا.

وبِناءً علَى تَوْجِيهاتِه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أُنْشِئَ لَهُ مَوقِعٌ خاصٌّ علَى شَبَكَةِ المَعْلُوماتِ الدَّوْلِيَّةِ(١)، مِن أَجْلِ تَعْمِيمِ الفائِدَةِ المَرجُوَّةِ -بعَوْنِ اللهِ تَعَالَى-، وتَقدِيمِ جَمِيعِ آثارِهِ العِلْمِيَّةِ مِنَ المُؤلَّفاتِ والتَّسْجِيلاتِ الصَّوْتِيَّةِ.

أَعْمَالُهُ وجُهُودُهُ الأُخْرَى:

إلَى جانِبِ تِلكَ الجُهُودِ المُثْمِرَةِ فِي مَجالاتِ التَّدْرِيسِ والتَّأْلِيفِ والإِمامَةِ والخَطابَةِ والإِفْتاءِ والدَّعْوةِ إلَى اللهِ -سبحانه وتَعالَى- كانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ أَعمالٌ كَثِيرةٌ مُوَفَّقَةٌ مِنْهَا:

- عُضوًا فِي هَيْئَة كِبارِ العُلَماء فِي المَمْلكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّة، مِن عام (١٤٠٧هـ) حتَّى وفاته.
- عضوًا فِي المَجْلس العِلمِيِّ بجامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ، فِي العامَيْنِ الدِّرَاسِيَّيْنِ (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).
- عضوًا فِي مَجْلِسِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعةِ وأُصُولِ الدِّينِ، بفَرْعِ جامِعةِ الإمامِ مُحَمَّدِ بنِ سُعُودٍ الإسلاميَّةِ فِي القَصِيمِ، ورَئِيسًا لِقِسْمِ العَقِيدةِ فِيها.
- وفِي آخِرِ فَترةِ تَدريسِهِ بالمَعْهَدِ العِلْمِيِّ شارَكَ فِي عُضويَّةِ لَجْنَةِ الخِطَطِ والمَناهِجِ لِلمَعاهِدِ العِلْمِيَّةِ، وأَلَّفَ عَدَدًا مِنَ الكُتُبِ المُقَرَّرَةِ فِيهَا.

---

(١) www.binothaimeen.com

- عُضـوًا فِي لجْنَةِ التَّوْعِيَةِ فِي مَوْسِـمِ الحَجِّ، مِن عـام (١٣٩٢هـ) حتَّى وفـاته -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، حيثُ كانَ يُلقِي دُرُوسًا ومُحاضراتٍ فِي مكَّة والمَشاعِر، ويُفْتِي فِي المَسائِلِ والأَحكامِ الشَّرعيَّة.
- تَرأَّسَ جَمعيَّةَ تَحفيظِ القُرْآنِ الكَريمِ الخَيريَّةَ فِي عُنَيْزَةَ مُنْذُ تَأْسِيسِها عامَ (١٤٠٥هـ) حتَّى وفاتِه.
- أَلقَى مُحاضراتٍ عَديدةٍ داخِلَ المملكةِ العربيَّةِ السُّعوديَّةِ علَى فِئاتٍ مُتنوِّعةٍ مِنَ النَّاسِ، كَما أَلقَى مُحاضراتٍ عَبْرَ الهاتِفِ علَى تَجمُّعاتٍ ومَراكِزَ إسلاميَّة فِي جِهاتٍ مُختلفةٍ مِنَ العالَمِ.
- مِن عُلماءِ المملكةِ الكِبارِ الذِين يُجيبُونَ علَى أَسئلةِ المُسْتفسِرينَ حولَ أَحكامِ الدِّينِ وأُصُولِه؛ عَقِيدةً وشَريعةً، وذَلكَ عَبْرَ البَرامِجِ الإِذاعيَّةِ فِي المملكةِ العَربيَّةِ السُّعُوديَّةِ، وأَشهرُها بَرْنامَجُ (نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ).
- نَذَرَ نَفْسَهُ لِلإجابَةِ علَى أَسئلةِ السَّائِلِينَ؛ مُهاتَفةً ومُكاتَبةً ومُشافَهةً.
- رَتَّبَ لِقاءاتٍ عِلميَّةً مُجَدْوَلَةً، أُسْبُوعيَّةً وشَهْرِيَّةً وسَنَوِيَّةً.
- شارَكَ فِي العَدِيد مِنَ المُؤتَمَراتِ التِي عُقِدَت فِي المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.
- ولأنَّه يَهتمُّ بالسُّلُوكِ التَّربويِّ والجانِبِ الوَعْظِيِّ اعتنَى بتَوْجِيهِ الطُّلَّابِ وإرشادِهِم إِلَى سُلُوكِ المَنْهَجِ الجادِّ فِي طَلَبِ العِلْم وتَحْصيلِه، وعَمِلَ علَى استِقْطابِهِمْ والصَّبْرِ علَى تَعْليمِهِمْ وتَحمُّلِ أَسئلتِهِمُ المُتعدِّدةِ، والاهتِمامِ بأُمُورِهِمْ.
- ولِلشَّيخِ -رَحِمَهُ اللهُ- أَعمالٌ عَديدةٌ فِي مَيادِينِ الخَيرِ وأَبوابِ البِرِّ ومَجالاتِ الإِحْسانِ إِلَى النَّاسِ، والسَّعْيِ فِي حَوائِجِهِمْ وكِتابَةِ الوَثَائِقِ والعُقُودِ بَيْنَهُمْ، وإِسداءِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ بِصِدْقٍ وإِخلاصٍ.

مَكَانَتُهُ العِلْمِيَّةُ:

يُعَدُّ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ الذِينَ وَهَبَهُمُ اللهُ -بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ- تَأْصِيلًا وَمَلَكَةً عَظِيمَةً فِي مَعرِفَةِ الدَّلِيلِ واتِّبَاعِهِ واستِنْبَاطِ الأَحْكامِ والفَوائِدِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ، وسَبْرِ أَغْوارِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعَانِيَ وإِعْرابًا وبَلاغَةً.

وَلِمَا تَحَلَّى بِهِ مِن صِفاتِ العُلَماءِ الجَليلةِ، وأَخلاقِهِمُ الحَميدَةِ، والجَمْعِ بَيْنَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ أَحَبَّهُ النَّاسُ مَحبَّةً عَظِيمَةً، وقَدَّرَهُ الجَميعُ كُلَّ التَّقديرِ، ورَزَقَهُ اللهُ القَبُولَ لَدَيْهِمْ، واطْمَأَنُّوا لِاخْتِيارَاتِهِ الفِقْهِيَّةِ، وأَقْبَلُوا عَلَى دُرُوسِهِ وفَتاواهُ وآثارِهِ العِلْمِيَّةِ، يَنْهَلُونَ مِنْ مَعِينِ عِلْمِهِ، ويَسْتَفِيدُونَ مِنْ نُصْحِهِ ومَواعِظِهِ.

وقَدْ مُنِحَ جائِزَةَ المَلِك فَيْصَل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- العَالَمِيَّةَ لِخِدْمَةِ الإِسلامِ عامَ (١٤١٤هـ)، وجاءَ فِي الحَيْثِيَّاتِ التِي أَبْدَتْها لَجْنَةُ الاخْتِيارِ لِمَنْحِهِ الجائِزَةَ ما يَأْتِي:

- أَوَّلًا: تَحَلِّيهِ بِأَخْلاقِ العُلَماءِ الفاضِلَةِ التِي مِنْ أَبْرَزِها: الوَرَعُ، ورَحابَةُ الصَّدْرِ، وقَوْلُ الحَقِّ، والعَمَلُ لِمَصْلحةِ المُسلِمِينَ، والنُّصحُ لِخَاصَّتِهِم وعامَّتِهِم.
- ثانِيًا: انتِفاعُ الكَثيرِينَ بعِلْمِهِ؛ تَدْرِيسًا وإِفتاءً وتَأْلِيفًا.
- ثالِثًا: إِلقاؤُهُ المُحاضَراتِ العامَّةَ النَّافِعةَ فِي مُختَلَفِ مَناطِقِ المملكةِ.
- رابِعًا: مُشارَكتُه المُفيدةُ فِي مُؤتَمَراتٍ إسلامِيَّةٍ كَثيرةٍ.
- خامِسًا: اتِّباعُه أُسلوبًا مُتميِّزًا فِي الدَّعْوةِ إِلَى اللهِ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنةِ، وتَقْدِيمُهُ مَثَلًا حَيًّا لِـمَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ فِكْرًا وسُلُوكًا.

عَقِبُهُ:

لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ البَنِينَ، وثَلاثٌ مِنَ البَناتِ، وبَنُوهُ هُمْ: عَبْدُ اللهِ، وعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وإِبْرَاهِيمُ، وعَبْدُ العَزِيزِ، وعَبْدُ الرَّحِيمِ.

وَفاتُهُ:

تُوُفِّيَ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي مَدِينَةِ جُدَّةَ، قُبيلَ مَغْرِبِ يَومِ الأَرْبعاءِ، الخامِسَ عشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوَّال، عامَ (١٤٢١هـ)، وَصُلِّيَ عَلَيه فِي المسجِدِ الحَرَام بَعْدَ صَلاةِ عَصْرِ يَوم الخَمِيسِ، ثُمَّ شَيَّعَتْهُ تِلكَ الآلافُ مِنَ المُصَلِّينَ والحُشُودِ العَظِيمَةِ فِي مَشاهِدَ مُؤَثِّرَةٍ، ودُفِنَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

وبَعْدَ صَلاةِ الجُمُعةِ مِنَ اليَوْمِ التَّالي صُلِّي عَلَيه صَلاةَ الغائِبِ فِي جَمِيعِ مُدُنِ المملكةِ العربيَّةِ السُّعُوديَّةِ.

رَحِمَ اللهُ شَيْخَنَا رَحْمَةَ الأَبْـرارِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِـهِ، ومَنَّ عَلَيهِ بمِغْفِرَتِـهِ ورِضْوَانِهِ، وجَزَاهُ عمَّا قَدَّم لِلإسْلامِ والمُسلِمِينَ خَيْرًا.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ[١] اللهِ[٢] ....

[١] ابْتَدَأَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كِتَابَهُ بِالبَسْمَلَةِ؛ اقْتِدَاءً بِكِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّهُ مَبْدُوءٌ بِالبَسْمَلَةِ، وَاتِّبَاعًا لِحَدِيثِ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِـ(بِسْمِ اللهِ) فَهُوَ أَبْتَرُ»(١) وَاقْتِدَاءً بِالرَّسُولِ ﷺ، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ كُتُبَهُ بِالبَسْمَلَةِ.

الجَارُّ وَالمَجْرُورُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ فِعْلٍ مُؤَخَّرٍ مُنَاسِبٍ لِلْمَقَامِ، تَقْدِيرُهُ: بِسْمِ اللهِ أَكْتُبُ أَوْ أُصَنِّفُ.

وَقَدَّرْنَاهُ فِعْلًا؛ لِأَنَّ الأَصْلَ فِي العَمَلِ الأَفْعَالُ.

وَقَدَّرْنَاهُ مُؤَخَّرًا لِفَائِدَتَيْنِ:

الأُولَى: التَّبَرُّكُ بِالبَدَاءَةِ بِاسْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الثَّانِيَةُ: إِفَادَةُ الحَصْرِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ المُتَعَلِّقِ يُفِيدُ الحَصْرَ.

وَقَدَّرْنَاهُ مُنَاسِبًا؛ لِأَنَّهُ أَدَلُّ عَلَى المُرَادِ، فَلَوْ قُلْنَا مَثَلًا عِنْدَمَا نُرِيدُ أَنْ نَقْرَأَ كِتَابًا: «بِسْمِ اللهِ نَبْتَدِئُ» مَا يُدْرَى بِمَاذَا نَبْتَدِئُ، لَكِنْ: «بِسْمِ اللهِ أَقْرَأُ» يَكُونُ أَدَلَّ عَلَى المُرَادِ الَّذِي أَبْتَدِئُ بِهِ.

[٢] (اللهُ) عَلَمٌ عَلَى البَارِي جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ الِاسْمُ الَّذِي تَتْبَعُهُ جَمِيعُ الأَسْمَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بلفظ: «بذكر الله».

الرَّحْمَنِ[١] الرَّحِيمِ[٢] اعْلَمْ[٣] ....

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم:١-٢].

لَا نَقُولُ: إِنَّ لَفْظَ الجَلَالَةِ (اللهِ) صِفَةٌ، بَل نَقُولُ: هِيَ عَطْفُ بَيَانٍ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لَفْظُ الجَلَالَةِ تَابِعًا تَبعِيَّةَ النَّعْتِ لِلْمَنْعُوتِ.

[١] الرَّحْمَن: اسْمٌ مِنَ الأَسْمَاءِ الْمُخْتَصَّةِ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، وَالرَّحْمَنُ مَعْنَاهُ: الْمُتَّصِفُ بِالرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ.

[٢] الرَّحِيم: يُطْلَقُ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَعَلَى غَيْرِهِ، وَمَعْنَاهُ: ذُو الرَّحْمَةِ الوَاصِلَةِ، فَالرَّحْمَنُ ذُو الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ، وَالرَّحِيمُ ذُو الرَّحْمَةِ الوَاصِلَةِ، فَإِذَا جُمِعَا صَارَ الْمُرَادُ بِالرَّحِيمِ الْمُوصِّلَ رَحْمَتَهُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت:٢١].

[٣] العِلْمُ: هُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَازِمًا.

وَمَرَاتِبُ الإِدْرَاكِ سِتٌّ:

الأُولَى: العِلْمُ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَازِمًا.

الثَّانِيَةُ: الجَهْلُ البَسِيطُ، وَهُوَ عَدَمُ الإِدْرَاكِ بِالكُلِّيَّةِ.

الثَّالِثَةُ: الجَهْلُ الْمُرَكَّبُ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى وَجْهٍ يُخَالِفُ مَا هُوَ عَلَيْهِ.

الرَّابِعَةُ: الوَهْمُ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالِ ضِدٍّ رَاجِحٍ.

الخَامِسَةُ: الشَّكُّ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالٍ مُسَاوٍ.

السَّادِسَةُ: الظَّنُّ، وَهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالِ ضِدٍّ مَرْجُوحٍ.



رَحِمَكَ اللهُ[١] أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ[٢]:

الأُولَى: العِلْمُ وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللهِ[٣] ....

وَالعِلْمُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: ضَرُورِيٍّ وَنَظَرِيٍّ.

فَالضَّرُورِيُّ مَا يَكُونُ إِدْرَاكُ المَعْلُومِ فِيهِ ضَرُورِيًّا، بِحَيْثُ يُضْطَرُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلَا اسْتِدْلَالٍ، كَالعِلْمِ بِأَنَّ النَّارَ حَارَّةٌ، مَثَلًا.

وَالنَّظَرِيُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ كَالعِلْمِ بِوُجُوبِ النِّيَّةِ فِي الوُضُوءِ.

[١] «رَحِمَكَ اللهُ»: أَفَاضَ عَلَيْكَ مِنْ رَحْمَتِهِ الَّتِي تَحْصُلُ بِهَا عَلَى مَطْلُوبِكَ، وَتَنْجُو مِنْ مَحْذُورِكَ، فَالمَعْنَى: غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِكَ، وَوَفَّقَكَ وَعَصَمَكَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْهَا، هَذَا إِذَا أُفْرِدَتِ الرَّحْمَةُ، أَمَّا إِذَا قُرِنَتْ بِالمَغْفِرَةِ؛ فَالمَغْفِرَةُ لِمَا مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ، وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ لِلخَيْرِ وَالسَّلَامَةُ مِنَ الذُّنُوبِ فِي المُسْتَقْبَلِ.

وَصَنِيعُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَدُلُّ عَلَى عِنَايَتِهِ وَشَفَقَتِهِ بِالمُخَاطَبِ وَقَصْدِ الخَيْرِ لَهُ.

[٢] هَذِهِ المَسَائِلُ الَّتِي ذَكَرَهَا المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- تَشْمَلُ الدِّينَ كُلَّهُ؛ فَهِيَ جَدِيرَةٌ بِالعِنَايَةِ لِعِظَمِ نَفْعِهَا.

[٣] أَيْ مَعْرِفَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِالقَلْبِ مَعْرِفَةً تَسْتَلْزِمُ قَبُولَ مَا شَرَعَهُ، وَالإِذْعَانَ وَالِانْقِيَادَ لَهُ، وَتَحْكِيمَ شَرِيعَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَيَتَعَرَّفُ العَبْدُ عَلَى رَبِّهِ بِالنَّظَرِ فِي الآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَالنَّظَرِ فِي الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي هِيَ المَخْلُوقَاتُ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ كُلَّمَا نَظَرَ فِي تِلْكَ الآيَاتِ ازْدَادَ عِلْمًا بِخَالِقِهِ وَمَعْبُودِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ[١] وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ[٢] ....

[١] أَيْ: مَعْرِفَةُ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ المَعْرِفَةَ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ قَبُولَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الهُدَى وَدِينِ الحَقِّ، وَتَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ فِيمَا أَمَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَتَحْكِيمُ شَرِيعَتِهِ، وَالرِّضَا بِحُكْمِهِ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ»(١).

[٢] قَوْلُهُ: «**مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ**»: الإِسْلَامُ بِالمَعْنَى العَامِّ هُوَ التَّعَبُّدُ للهِ بِمَا شَرَعَ مُنْذُ أَنْ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، كَمَا ذَكَرَ عَزَّوَجَلَّ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ كُلَّهَا إِسْلَامٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨].

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى رقم (٩٧)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول (ص:٥٦).



بِالأَدِلَّةِ[١].

وَالإِسْلَامُ بِالمَعْنَى الخَاصِّ بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ يَخْتَصُّ بِمَا بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِأَنَّ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ نَسَخَ جَمِيعَ الأَدْيَانِ السَّابِقَةِ، فَصَارَ مَنِ اتَّبَعَهُ مُسْلِمًا وَمَنْ خَالَفَهُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ.

فَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ رُسُلِهِمْ، فَاليَهُودُ مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ مُوسَى ﷺ، وَالنَّصَارَى مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ عِيسَى ﷺ، وَأَمَّا حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ فَكَفَرُوا بِهِ فَلَيْسُوا بِمُسْلِمِينَ.

وَهَذَا الدِّينُ الإِسْلَامِيُّ هُوَ الدِّينُ المَقْبُولُ عِنْدَ اللهِ، النَّافِعُ لِصَاحِبِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] وَقَالَ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] وَهَذَا الإِسْلَامُ هُوَ الإِسْلَامُ الَّذِي امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

[١] قَوْلُهُ: «بِالأَدِلَّةِ» جَمْعُ: دَلِيلٍ، وَهُوَ مَا يُرْشِدُ إِلَى المَطْلُوبِ، وَالأَدِلَّةُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ سَمْعِيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ، فَالسَّمْعِيَّةُ مَا ثَبَتَ بِالوَحْيِ وَهُوَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَالعَقْلِيَّةُ مَا ثَبَتَ بِالنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَقَدْ أَكْثَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ ذِكْرِ هَذَا النَّوْعِ فِي كِتَابِهِ، فَكَمْ مِنْ آيَةٍ قَالَ اللهُ فِيهَا: وَمِنْ آيَاتِهِ كَذَا وَكَذَا، وَهَكَذَا يَكُونُ سِيَاقُ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ ﷺ:

١- بِالأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ: فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] الآيَةَ. وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤].



الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ[١].

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ[٢].

٢- بِالأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ: فبِالنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ فِيمَا أَتَى بِهِ مِنَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ الَّتِي أَعْظَمُهَا كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ المُشْتَمِلُ عَلَى الأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ النَّافِعَةِ، وَالأَحْكَامِ المُصْلِحَةِ العَادِلَةِ، وَمَا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ، الَّتِي لَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنْ وَحْيٍ، وَالَّتِي صَدَّقَهَا مَا وَقَعَ مِنْهَا.

[١] قَوْلُهُ: «**العَمَلُ بِهِ**» أَيِ: العَمَلُ بِمَا تَقْتَضِيهِ هَذِهِ المَعْرِفَةُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَالقِيَامِ بِطَاعَتِهِ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ مِنَ العِبَادَاتِ الخَاصَّةِ، وَالعِبَادَاتِ المُتَعَدِّيَةِ:

فَالعِبَادَاتُ الخَاصَّةُ مِثْلُ الصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحَجِّ.

وَالعِبَادَاتُ المُتَعَدِّيَةِ كَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَالعَمَلُ فِي الحَقِيقَةِ هُوَ ثَمَرَةُ العِلْمِ؛ فَمَنْ عَمِلَ بِلَا عِلْمٍ فَقَدْ شَابَهَ النَّصَارَى، وَمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ فَقَدْ شَابَهَ اليَهُودَ.

[٢] أَيِ: الدَّعْوَةُ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ شَرِيعَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى مَرَاتِبِهَا الثَّلَاثِ أَوِ الأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] وَالرَّابِعَةُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وَلَا بُدَّ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ مِنْ عِلْمٍ بِشَرِيعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَتَّى تَكُونَ الدَّعْوَةُ عَنْ عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ

وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨] وَالبَصِيرَةُ تَكُونُ فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ الدَّاعِيَةُ عَالِمًا بِالحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وَفِي كَيْفِيَّةِ الدَّعْوَةِ، وَفِي حَالِ المَدْعُوِّ.

وَمَجَالَاتُ الدَّعْوَةِ كَثِيرَةٌ:

مِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالخَطَابَةِ، وَإِلْقَاءِ المُحَاضَرَاتِ.

وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ بِالمَقَالَاتِ، وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ بِحَلَقَاتِ العِلْمِ.

وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ بِالتَّأْلِيفِ وَنَشْرِ الدِّينِ عَنْ طَرِيقِ التَّأْلِيفِ.

وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ فِي المَجَالِسِ الخَاصَّةِ.

فَإِذَا جَلَسَ الإِنْسَانُ فِي مَجْلِسٍ فِي دَعْوَةٍ مَثَلًا فَهَذَا مَجَالٌ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَى وَجْهٍ لَا مَلَلَ فِيهِ وَلَا إِثْقَالَ، وَيَحْصُلُ هَذَا بِأَنْ يَعْرِضَ الدَّاعِيَةُ مَسْأَلَةً عِلْمِيَّةً عَلَى الجَالِسِينَ، ثُمَّ تَبْتَدِئُ المُنَاقَشَةُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ المُنَاقَشَةَ وَالسُّؤَالَ وَالجَوَابَ لَهُ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي فَهْمِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَتَفْهِيمِهِ، وَقَدْ يَكُونُ أَكْثَرَ فَعَالِيَةً مِنْ إِلْقَاءِ خُطْبَةٍ أَوْ مُحَاضَرَةٍ إِلْقَاءً مُرْسَلًا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ هِيَ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَطَرِيقَةُ مَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَإِذَا عَرَفَ الإِنْسَانُ مَعْبُودَهُ، وَنَبِيَّهُ، وَدِينَهُ وَمَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ لِذَلِكَ فَإِنَّ عَلَيْهِ السَّعْيَ فِي إِنْقَاذِ إِخْوَانِهِ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلْيُبْشِرْ بِالخَيْرِ.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ،**

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ[١] ....

فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»(١) مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ.

وَيَقُولُ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(٢). وَقَالَ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»(٣).

[١] الصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَحَبْسُهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَحَبْسُهَا عَنِ التَّسَخُّطِ مِنْ أَقْدَارِ اللهِ، فَيَحْبِسُ النَّفْسَ عَنِ التَّسَخُّطِ وَالتَّضَجُّرِ وَالمَلَلِ، وَيَكُونُ دَائِمًا نَشِيطًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللهِ وَإِنْ أُوذِيَ؛ لِأَنَّ أَذِيَّةَ الدَّاعِينَ إِلَى الخَيْرِ مِنْ طَبِيعَةِ البَشَرِ إِلَّا مَنْ هَدَى اللهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤].

وَكُلَّمَا قَوِيَتِ الأَذِيَّةُ قَرُبَ النَّصْرُ، وَلَيْسَ النَّصْرُ مُخْتَصًّا بِأَنْ يُنْصَرَ الإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ، وَيَرَى أَثَرَ دَعْوَتِهِ قَدْ تَحَقَّقَ، بَلِ النَّصْرُ يَكُونُ وَلَوْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَنْ يَجْعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ قَبُولًا لِمَا دَعَا إِلَيْهِ، وَأَخْذًا بِهِ، وَتَمَسُّكًا بِهِ، فَإِنَّ هَذَا يُعْتَبَرُ نَصْرًا لِهَذَا الدَّاعِيَةِ وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، رقم (٢٩٤٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، رقم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، رقم (١٨٩٣)، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



فَعَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَكُونَ صَابِرًا عَلَى دَعْوَتِهِ، مُسْتَمِرًّا فِيهَا، صَابِرًا عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، صَابِرًا عَلَى مَا يَعْتَرِضُ دَعْوَتَهُ، صَابِرًا عَلَى مَا يَعْتَرِضُهُ هُوَ مِنَ الأَذَى.

وَهَا هُمُ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أُوذُوا بِالقَوْلِ وَبِالفِعْلِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، وَلَكِنْ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يُقَابِلَ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣]، كَانَ مِنَ الْمُنْتَظَرِ أَنْ يُقَالَ: فَاشْكُرْ نِعْمَةَ رَبِّكَ، وَلَكِنَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان:٢٤]، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ قَامَ بِهَذَا القُرْآنِ فَلابُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مَا يَنَالُهُ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ.

وَانْظُرْ إِلَى حَالِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[1].

فَعَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يَكُونَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَالصَّبْرُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١- صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللهِ.

٢- صَبْرٌ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، رقم (١٧٩٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ



وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[١] ....

٣- صَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ الَّتِي يُجْرِيهَا؛ إِمَّا مِمَّا لَا كَسْبَ لِلْعِبَادِ فِيهِ، وَإِمَّا مِمَّا يُجْرِيهِ اللهُ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ العِبَادِ مِنَ الإِيذَاءِ وَالِاعْتِدَاءِ.

[١] قَوْلُهُ: «وَالدَّلِيلُ» أَيْ: عَلَى هَذِهِ المَرَاتِبِ الأَرْبَعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أَقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ بِالعَصْرِ الَّذِي هُوَ الدَّهْرُ، وَهُوَ مَحَلُّ الحَوَادِثِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَأَقْسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ كُلَّ الإِنْسَانِ فِي خُسْرٍ إِلَّا مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الأَرْبَعِ: الإِيمَانِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ(١) -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: جِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

إِحْدَاهَا: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الهُدَى وَدِينِ الحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى العَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَأَذَى الخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ للهِ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ المَرَاتِبَ الأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ.

فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ أَقْسَمَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ بِالعَصْرِ عَلَى أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فَهُوَ فِي خَيْبَةٍ وَخُسْرٍ مَهْمَا كَثُرَ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَظُمَ قَدْرُهُ وَشَرَفُهُ، إِلَّا مَنْ جَمَعَ هَذِهِ الأَوْصَافَ الأَرْبَعَةَ:

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٩).

قَال الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى[١]-: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ»[٢] ....

أَحَدُهَا: الإِيمَانُ، وَيَشْمَلُ كُلَّ مَا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنِ اعْتِقَادٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ نَافِعٍ.

الثَّانِي: العَمَلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ كُلُّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ بِأَنْ يَكُونَ فَاعِلُهُ للهِ مُخْلِصًا، وَلِمُحَمَّدٍ ﷺ مُتَّبِعًا.

الثَّالِثُ: التَّوَاصِي بِالحَقِّ، وَهُوَ التَّوَاصِي عَلَى فِعْلِ الخَيْرِ وَالحَثُّ عَلَيْهِ وَالتَّرْغِيبُ فِيهِ.

الرَّابِعُ: التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ، بِأَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ أَوَامِرِ اللهِ تَعَالَى، وَتَرْكِ مَحَارِمِ اللهِ، وَتَحَمُّلِ أَقْدَارِ اللهِ.

وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ يَتَضَمَّنَانِ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا قِوَامُ الأُمَّةِ وَصَلَاحُهَا وَنَصْرُهَا وَحُصُولُ الشَّرَفِ وَالفَضِيلَةِ لَهَا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

[١] الشَّافِعِيُّ: هُوَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ العَبَّاسِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ شَافِعٍ الهَاشِمِيُّ القُرَشِيُّ، وُلِدَ فِي غَزَّةَ سَنَةَ ١٥٠هـ، وَتُوُفِّيَ بِمِصْرَ سَنَةَ ٢٠٤هـ، وَهُوَ أَحَدُ الأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ، عَلَى الجَمِيعِ رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى.

[٢] مُرَادُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ كَافِيَةٌ لِلخَلْقِ فِي الحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ اللهِ: بِالإِيمَانِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى ذَلِك، وَلَيْسَ مُرَادُهُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ كَافِيَةٌ لِلخَلْقِ فِي جَمِيعِ الشَّرِيعَةِ.

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ». وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩] فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ[٢].

وَقَوْلُهُ: «**لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ**»؛ لِأَنَّ العَاقِلَ البَصِيرَ إِذَا سَمِعَ هَذِهِ السُّورَةَ أَوْ قَرَأَهَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْعَى إِلَى تَخْلِيصِ نَفْسِهِ مِنَ الخُسْرَانِ، وَذَلِكَ بِاتِّصَافِهِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الأَرْبَعِ: الإِيمَانِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّوَاصِي بِالحَقِّ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ.

[١] البُخَارِيُّ هُوَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ المُغِيرَةِ البُخَارِيُّ، وُلِدَ بِبُخَارَى فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ، وَنَشَأَ يَتِيمًا فِي حِجْرِ وَالِدَتِهِ، وَتُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي خَرْتَنْكَ بَلْدَةٍ عَلَى فَرْسَخَيْنِ مِنْ سَمَرْقَنْدَ لَيْلَةَ عِيدِ الفِطْرِ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَمِئَتَيْنِ.

[٢] اسْتَدَلَّ البُخَارِيُّ(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِهَذِهِ الآيَةِ عَلَى وُجُوبِ البَدَاءَةِ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ، وَهَذَا دَلِيلٌ أَثَرِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإِنْسَانَ يَعْلَمُ أَوَّلًا ثُمَّ يَعْمَلُ ثَانِيًا.

وَهُنَاكَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ نَظَرِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ العِلْمَ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ القَوْلَ أَوِ العَمَلَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا مَقْبُولًا حَتَّى يَكُونَ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَ الإِنْسَانُ أَنْ عَمَلَهُ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْعِلْمِ.

وَلَكِنْ هُنَاكَ أَشْيَاءُ يَعْلَمُهَا الإِنْسَانُ بِفِطْرَتِهِ كَالعِلْمِ بِأَنَّ اللهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَإِنَّ هَذَا قَدْ فُطِرَ عَلَيْهِ العَبْدُ؛ وَلِهَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى عَنَاءٍ كَبِيرٍ فِي التَّعَلُّمِ، أَمَّا المَسَائِلُ الجُزْئِيَّةُ المُنْتَشِرَةُ فَهِيَ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ وَتَكْرِيسِ جُهُودٍ.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب العلم، (١/ ٢٤).

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ وَالعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا[١] ....

---

[١] وَدَلِيلُ ذَلِكَ -أَعْنِي: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا- سَمْعِيٌّ وَعَقْلِيٌّ:

أَمَّا السَّمْعِيُّ فَكَثِيرٌ، وَمِنْهُ:

قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف:١١] الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر:٦٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ.

أَمَّا الدَّلِيلُ العَقْلِيُّ عَلَى أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا فَقَدْ جَاءَتِ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ وُجُودِهِ عَدَمٌ، وَالعَدَمُ لَيسَ بِشَيْءٍ، وَمَا لَيسَ بِشَيْءٍ لَا يُوجِدُ شَيْئًا، وَلَمْ يَخْلُقْهُ أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الخَلْقِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَأْتِيَ صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ.

وَرَزَقَنَا[١] ....

وَلِأَنَّ وُجُودَ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ عَلَى هَذَا النِّظَامِ الْبَدِيعِ وَالتَّنَاسُقِ المُتَآلِفِ يَمْنَعُ مَنْعًا بَاتًّا أَنْ يَكُونَ صُدْفَةً؛ إِذِ المَوْجُودُ صُدْفَةً لَيْسَ عَلَى نِظَامٍ فِي أَصْلِ وُجُودِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُنْتَظِمًا حَالَ بَقَائِهِ وَتَطَوُّرِهِ؟ فَتَعَيَّنَ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ الخَالِقُ هُوَ اللهَ وَحْدَهُ، فَلَا خَالِقَ وَلَا آمِرَ إِلَّا اللهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الخَلْقِ أَنْكَرَ رُبُوبِيَّةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا عَلَى وَجْهِ المُكَابَرَةِ، كَمَا حَصَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَعِنْدَمَا سَمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فَبَلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] وَكَانَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا فَقَالَ: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي»(١).

[١] أَدِلَّةُ هَذِهِ المَسْأَلَةِ كَثِيرَةٌ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالعَقْلِ:

أَمَّا الكِتَابُ: فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ:٢٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الطور، رقم (٤٨٥٤).



وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا[١] ....

وَأَمَّا السُّنَّةُ: فَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ فِي الجَنِينِ يُبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ(١).

وَأَمَّا الدَّلِيلُ العَقْلِيُّ عَلَى أَنَّ اللهَ رَزَقَنَا؛ فَلِأَنَّنَا لَا نَعِيشُ إِلَّا عَلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ خَلَقَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٧٠] فَفِي هَذِهِ الآيَاتِ بَيَانُ أَنَّ رِزْقَنَا طَعَامًا وَشَرَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

[١] هَذَا هُوَ الوَاقِعُ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ وَالعَقْلِيَّةُ:

أَمَّا السَّمْعِيَّةُ فَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٣٦-٤٠].

وَأَمَّا العَقْلُ: فَلِأَنَّ وُجُودَ هَذِهِ البَشَرِيَّةِ لِتَحْيَا، ثُمَّ تَتَمَتَّعَ كَمَا تَتَمَتَّعُ الأَنْعَامُ، ثُمَّ تَمُوتُ إِلَى غَيْرِ بَعْثٍ وَلَا حِسَابٍ -أَمْرٌ لَا يَلِيقُ بِحِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ هُوَ عَبَثٌ مَحْضٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٣)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا[١] ....

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ هَذِهِ الخَلِيقَةَ، وَيُرْسِلَ إِلَيْهَا الرُّسُلَ، وَيُبِيحُ لَنَا دِمَاءَ المُعَارِضِينَ المُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ثُمَّ تَكُونُ النَّتِيجَةُ لَا شَيْءَ، هَذَا مُسْتَحِيلٌ عَلَى حِكْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

[١] أَيْ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَرْسَلَ إِلَيْنَا -مَعْشَرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ- رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِ رَبِّنَا، وَيُزَكِّينَا، وَيُعَلِّمُنَا الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، كَمَا أَرْسَلَ إِلَى مَنْ قَبْلَنَا، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

وَلَا بُدَّ أَنْ يُرْسِلَ اللهُ الرُّسُلَ إِلَى الخَلْقِ لِتَقُومَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَلِيَعْبُدُوا اللهَ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْبُدَ اللهَ بِمَا يَرْضَاهُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ بَيَّنُوا لَنَا مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ عَزَّوَجَلَّ، فَبِذَلِكَ كَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَى الخَلْقِ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥-١٦].

فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ[١] وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ[١] ....

[١] هَذَا حَقٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ:

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٢-١٣٣]، وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣].

وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١].

وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَى» فَقِيلَ: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ»(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

[١] هَذَا أَيْضًا حَقٌّ مُسْتَفَادٌ مِنْ:

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥-١٦].

الثَّانِيَةُ[٢]: أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ فِي الحَدِيثِ السَّابِقِ: «وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ»(١).

[٢] أَيِ المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا عِلْمُهُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدٌ، بَلْ هُوَ وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] فَنَهَى اللهُ تَعَالَى أَنْ يَدْعُوَ الإِنْسَانُ مَعَ اللهِ أَحَدًا، وَاللهُ لَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ لَا يَرْضَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦].

فَالكُفْرُ وَالشِّرْكُ لَا يَرْضَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بَلْ إِنَّمَا أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الكُتُبَ لِمُحَارَبَةِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالقَضَاءِ عَلَيْهِمَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الثَّالِثَةُ[١]: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وَإِذَا كَانَ اللهُ لَا يَرْضَى بِالكُفْرِ وَالشِّرْكِ فَإِنَّ الوَاجِبَ عَلَى المُؤْمِنِ أَنْ لَا يَرْضَى بِهِمَا؛ لِأَنَّ المُؤْمِنَ رِضَاهُ وَغَضَبُهُ تَبَعٌ رِضَا اللهِ وَغَضَبِهِ، فَيَغْضَبُ لِمَا يُغْضِبُ اللهَ وَيَرْضَى بِمَا يَرْضَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ اللهُ لَا يَرْضَى الكُفْرَ وَلَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ لَا يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ أَنْ يَرْضَى بِهِمَا.

وَالشِّرْكُ أَمْرُهُ خَطِيرٌ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»(١).

[١] أَيِ المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا عِلْمُهُ: الوَلَاءُ وَالبَرَاءُ.

وَالوَلَاءُ وَالبَرَاءُ أَصْلٌ عَظِيمٌ جَاءَتْ فِيهِ النُّصُوصُ الكَثِيرَةُ: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران:١١٨].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، رقم (٩٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٣-٢٤].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤] الآيَةَ.

وَلِأَنَّ مُوَالَاةَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَمُدَارَاتَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا فِي قَلْبِ الإِنْسَانِ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ العَقْلِ أَنْ يُحِبَّ الإِنْسَانُ شَيْئًا هُوَ عَدُوٌّ لِمَحْبُوبِهِ.

وَمُوَالَاةُ الكُفَّارِ تَكُونُ بِمُنَاصَرَتِهِمْ وَمُعَاوَنَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَمُوَادَّتُهُمْ تَكُونُ بِفِعْلِ الأَسْبَابِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا مَوَدَّتُهُمْ، فَتَجِدُهُ يُوَادُّهُمْ -أَيْ يَطْلُبُ وُدَّهُمْ- بِكُلِّ طَرِيقٍ، وَهَذَا لَا شَكَّ يُنَافِي الإِيمَانَ كُلَّهُ أَوْ كَمَالَهُ.

فَالوَاجِبُ عَلَى المُؤْمِنِ مُعَادَاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ إِلَيْهِ، وَبُغْضُهُ، وَالبُعْدُ عَنْهُ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَمْنَعُ نَصِيحَتَهُ وَدَعْوَتَهُ لِلْحَقِّ.

اعْلَمْ[١] أَرْشَدَكَ اللهُ[٢] لِطَاعَتِهِ[٣]: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ[٤] مِلَّةَ[٥] إِبْرَاهِيمَ[٦]: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ[٧] مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ[٨] ....

---

[١] تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى العِلْمِ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى إِعَادَتِهِ هُنَا.

[٢] الرُّشْدُ: الِاسْتِقَامَةُ عَلَى طَرِيقِ الحَقِّ.

[٣] الطَّاعَةُ: مُوَافَقَةُ المُرَادِ فِعْلًا لِلْمَأْمُورِ وَتَرْكًا لِلْمَحْظُورِ.

[٤] الحَنِيفِيَّةُ: هِيَ المِلَّةُ المَائِلَةُ عَنِ الشِّرْكِ، المَبْنِيَّةُ عَلَى الإِخْلَاصِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

[٥] أَيْ: طَرِيقُهُ الدِّينِيُّ الَّذِي يَسِيرُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

[٦] إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥] وَهُوَ أَبُو الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ مَنْهَجِهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ لِلاقْتِدَاءِ بِهِ.

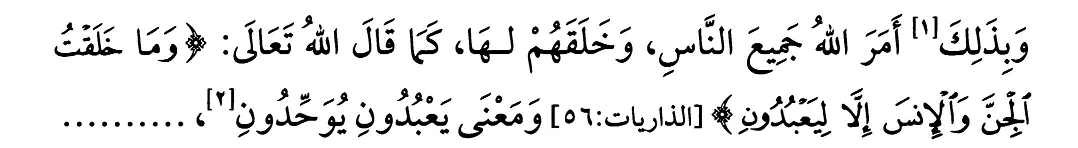
[٧] قَوْلُهُ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ» هَذِهِ خَبَرُ (أَنَّ) فِي قَوْلِ: (أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ) وَالعِبَادَةُ بِمَفْهُومِهَا العَامِّ هِيَ «التَّذَلُّلُ للهِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ شَرَائِعُهُ».

أَمَّا المَفْهُومُ الخَاصُّ لِلْعِبَادَةِ -يَعْنِي تَفْصِيلَهَا- فَقَدْ قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: «العِبَادَةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الأَقْوَالِ، وَالأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ كَالخَوْفِ، وَالخَشْيَةِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ».

[٨] الإِخْلَاصُ هُوَ التَّنْقِيَةُ، وَالمُرَادُ بِهِ أَنْ يَقْصِدَ المَرْءُ بِعِبَادَتِهِ وَجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالوُصُولَ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، بِحَيْثُ لَا يَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ لَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).



وَبِذَلِكَ[١] أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ يُوَحِّدُونِ[٢]، ....

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٢].

[١] أَيْ: بِالحَنِيفِيَّةِ -وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ- أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وَبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الخَلْقَ إِنَّمَا خُلِقُوا لِهَذَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

[٢] يَعْنِي: التَّوْحِيدُ مِنْ مَعْنَى العِبَادَةِ، وَإِلَّا فَقَدْ سَبَقَ لَكَ مَعْنَى العِبَادَةِ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُطْلَقُ، وَأَنَّهَا أَعَمُّ مِنْ مُجَرَّدِ التَّوْحِيدِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ العِبَادَةَ نَوْعَانِ:

عِبَادَةٌ كَوْنِيَّةٌ، وَهِيَ الخُضُوعُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى الكَوْنِيِّ، وَهَذِهِ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الخَلْقِ، لَا يَخْرُجُ عَنْهَا أَحَدٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] فَهِيَ شَامِلَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالكَافِرِ، وَالبَرِّ وَالفَاجِرِ.



وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ[١] ....

وَالثَّانِي: عِبَادَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَهِيَ الخُضُوعُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى الشَّرْعِيِّ، وَهَذِهِ خَاصَّةٌ بِمَنْ أَطَاعَ اللهَ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

فَالنَّوْعُ الأَوَّلُ لَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ الإِنْسَانُ؛ لِأَنَّهُ بِغَيْرِ فِعْلِهِ، لَكِنْ قَدْ يُحْمَدُ عَلَى مَا يَحْصُلُ مِنْهُ مِنْ شُكْرٍ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَصَبْرٍ عَلَى البَلَاءِ، بِخِلَافِ النَّوْعِ الثَّانِي فَإِنَّهُ يُحْمَدُ عَلَيْهِ.

[١] التَّوْحِيدُ لُغَةً مَصْدَرُ وَحَّدَ يُوَحِّدُ، أَيْ: جَعَلَ الشَّيْءَ وَاحِدًا، وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِنَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ، نَفْيِ الحُكْمِ عَمَّا سِوَى المُوَحَّدِ وَإِثْبَاتِهِ لَهُ، فَمَثَلًا نَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَتِمُّ لِلإِنْسَانِ التَّوْحِيدُ حَتَّى يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَيَنْفِيَ الأُلُوهِيَّةَ عَمَّا سِوَى اللهِ تَعَالَى، وَيُثْبِتَهَا للهِ وَحْدَهُ.

وَفِي الاِصْطِلَاحِ عَرَّفَهُ المُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ: «**التَّوْحِيدُ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ**» أَيْ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، لَا تُشْرِكُ بِهِ نَبِيًّا مُرْسَلًا، وَلَا مَلَكًا مُقَرَّبًا، وَلَا رَئِيسًا، وَلَا مَلِكًا، وَلَا أَحَدًا مِنَ الخَلْقِ، بَلْ تُفْرِدُهُ وَحْدَهُ بِالعِبَادَةِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا، وَرَغْبَةً وَرَهْبَةً، وَمُرَادُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ التَّوْحِيدُ الَّذِي بُعِثَتِ الرُّسُلُ لِتَحْقِيقِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَصَلَ بِهِ الإِخْلَالُ مِنْ أَقْوَامِهِمْ.

وَهُنَاكَ تَعْرِيفٌ أَعَمُّ لِلتَّوْحِيدِ وَهُوَ: «إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا يَخْتَصُّ بِهِ».

وَأَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ ثَلَاثَةٌ:

الأَوَّلُ: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ «إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالخَلْقِ، وَالمُلْكِ، وَالتَّدْبِيرِ» قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ

ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر:٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

الثَّانِي: تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، وَهُوَ «إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالعِبَادَةِ بِأَنْ لَا يَتَّخِذَ الإِنْسَانُ مَعَ اللهِ أَحَدًا يَعْبُدُهُ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، كَمَا يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ».

الثَّالِثُ: تَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَهُوَ «إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَذَلِكَ بِإِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ، وَنَفْيِ مَا نَفَاهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ، وَلَا تَمْثِيلٍ».

وَمُرَادُ المُؤَلِّفِ هُنَا تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ المُشْرِكُونَ، الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَاسْتَبَاحَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، وَسَبَى نِسَاءَهُمْ وَذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَكْثَرُ مَا يُعَالِجُ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّوْحِيدِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل:٣٦]. فَالعِبَادَةُ لَا تَصِحُّ إِلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَمَنْ أَخَلَّ بِهَذَا التَّوْحِيدِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَإِنْ أَقَرَّ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَلَوْ فُرِضَ أَنَّ رَجُلًا يُقِرُّ إِقْرَارًا كَامِلًا بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلَكِنَّهُ يَذْهَبُ إِلَى القَبْرِ فَيَعْبُدُ صَاحِبَهُ، أَوْ يَنْذُرُ لَهُ قُرْبَانًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ كَافِرٌ خَالِدٌ فِي النَّارِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وَإِنَّمَا كَانَ التَّوْحِيدُ أَعْظَمَ مَا أَمَرَ اللهُ؛ لِأَنَّهُ الأَصْلُ الَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ الدِّينُ كُلُّهُ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَأَمَرَ مَنْ أَرْسَلَهُ لِلدَّعْوَةِ أَنْ يَبْدَأَ بِهِ.



وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ. وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[1] [النساء:٣٦].

---

[١] أَعْظَمُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ الشِّرْكُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَعْظَمَ الحُقُوقِ هُوَ حَقُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا فَرَّطَ فِيهِ الإِنْسَانُ فَقَدْ فَرَّطَ فِي أَعْظَمِ الحُقُوقِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْظَمُ الذَّنْبِ أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(١).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»(٢).

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، رقم (٩٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٤٩٧)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ[١] الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ ....

وَاسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى بِالعِبَادَةِ وَنَهْيِهِ عَنِ الشِّرْكِ بِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦] فَأَمَرَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بِعِبَادَتِهِ، وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ بِهِ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ العِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ، فَمَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ فَهُوَ كَافِرٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ فَهُوَ مُسْلِمٌ مُخْلِصٌ.

وَالشِّرْكُ نَوْعَانِ: شِرْكٌ أَكْبَرُ، وَشِرْكٌ أَصْغَرُ.

فَالنَّوْعُ الأَوَّلُ: الشِّرْكُ الأَكْبَرُ، وَهُوَ كُلُّ شِرْكٍ أَطْلَقَهُ الشَّارِعُ، وَكَانَ مُتَضَمِّنًا لِخُرُوجِ الإِنْسَانِ عَنْ دِينِهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، وَهُوَ كُلُّ عَمَلٍ -قَوْلِيٍّ أَوْ فِعْلِيٍّ- أَطْلَقَ عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَصْفَ الشِّرْكِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُخْرِجُ عَنِ المِلَّةِ.

وَعَلَى الإِنْسَانِ الحَذَرُ مِنَ الشِّرْكِ أَكْبَرِهِ وَأَصْغَرِهِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨].

[١] الأُصُولُ جَمْعُ أَصْلٍ، وَهُوَ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَصْلُ الجِدَارِ وَهُوَ أَسَاسُهُ، وَأَصْلُ الشَّجَرَةِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ مِنْهُ الأَغْصَانُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٢٤].

وَهَذِهِ الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ يُشِيرُ بِهَا المُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى الأُصُولِ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا الإِنْسَانُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟

مَعْرِفَتُهَا[١]؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ[٢]، ....

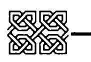
---

[١] أَوْرَدَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هَذِهِ المَسْأَلَةَ بِصِيغَةِ السُّؤَالِ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْتَبِهَ الإِنْسَانُ لَهَا؛ لِأَنَّهَا مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ وَأُصُولٌ كَبِيرَةٌ؛ وَإِنَّمَا قَالَ: إِنَّ هَذِهِ هِيَ الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؛ لِأَنَّهَا هِيَ الأُصُولُ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا المَرْءُ فِي قَبْرِهِ إِذَا دُفِنَ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ، فَسَأَلَاهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ. وَأَمَّا المُرْتَابُ أَوِ المُنَافِقُ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ! لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.

[٢] مَعْرِفَةُ اللهِ تَكُونُ بِأَسْبَابٍ: مِنْهَا النَّظَرُ وَالتَّفَكُّرُ فِي مَخْلُوقَاتِهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَمَعْرِفَةِ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَتَمَامِ قُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ:٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:١٩٠].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤].



وَدِينَهُ[١] ....

وَمِنْ أَسْبَابِ مَعْرِفَةِ العَبْدِ رَبَّهُ النَّظَرُ فِي آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ الوَحْيُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَنْظُرُ فِي هَذِهِ الآيَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ المَصَالِحِ العَظِيمَةِ الَّتِي لَا تَقُومُ حَيَاةُ الخَلْقِ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا بِهَا، فَإِذَا نَظَرَ فِيهَا وَتَأَمَّلَهَا وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ، وَوَجَدَ انْتِظَامَهَا وَمُوَافَقَتَهَا لِمَصَالِحِ العِبَادِ -عَرَفَ بِذَلِكَ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وَمِنْهَا مَا يُلْقِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَلْبِ المُؤْمِنِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَى رَبَّهُ رَأْيَ العَيْنِ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(١).

[١] أَيْ: مَعْرِفَةُ الأَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ دِينُهُ الَّذِي كُلِّفَ العَمَلَ بِهِ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَمَصَالِحِ الخَلْقِ، وَدَرْءِ المَفَاسِدِ عَنْهَا، وَدِينُ الإِسْلَامِ مَنْ تَأَمَّلَهُ حَقَّ التَّأَمُّلِ تَأَمُّلًا مَبْنِيًّا عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ -عَرَفَ أَنَّهُ دِينُ الحَقِّ، وَأَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي لَا تَقُومُ مَصَالِحُ الخَلْقِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَقِيسَ الإِسْلَامَ بِمَا عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ اليَوْمَ؛ فَإِنَّ المُسْلِمِينَ قَدْ فَرَّطُوا فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، وَارْتَكَبُوا مَحَاذِيرَ عَظِيمَةً، حَتَّى كَأَنَّ العَائِشَ بَيْنَهُمْ فِي البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ يَعِيشُ فِي جَوٍّ غَيْرِ إِسْلَامِيٍّ.

وَالدِّينُ الإِسْلَامِيُّ -بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى- مُتَضَمِّنٌ لِجَمِيعِ المَصَالِحِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الأَدْيَانُ السَّابِقَةُ، مُتَمَيِّزٌ عَلَيْهَا بِكَوْنِهِ صَالِحًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأُمَّةٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ[١].

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ[٢]؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِهِ[٣] ....

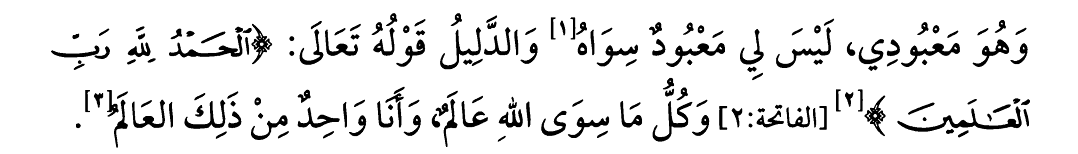
وَمَعْنَى كَوْنِهِ صَالِحًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأُمَّةٍ: أَنَّ التَّمَسُّكَ بِهِ لَا يُنَافِي مَصَالِحَ الأُمَّةِ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأُمَّةٍ، فَدِينُ الإِسْلَامِ يَأْمُرُ بِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ عَمَلٍ سَيِّئٍ، فَهُوَ يَأْمُرُ بِكُلِّ خُلُقٍ فَاضِلٍ، وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ خُلُقٍ سَافِلٍ.

[١] هَذَا هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الإِنْسَانِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَتَحْصُلُ بِدِرَاسَةِ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ العِبَادَةِ، وَالأَخْلَاقِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ مَعْرِفَةً بِنَبِيِّهِ وَإِيمَانًا بِهِ أَنْ يُطَالِعَ مِنْ سِيرَتِهِ مَا تَيَسَّرَ فِي حَرْبِهِ وَسِلْمِهِ، وَشِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِ، نَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ المُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ ﷺ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَى ذَلِكَ، إِنَّهُ وَلِيُّهُ وَالقَادِرُ عَلَيْهِ.

[٢] أَيْ: مَنْ هُوَ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ، وَأَمَدَّكَ، وَأَعَدَّكَ، وَرَزَقَكَ.

[٣] التَّرْبِيَةُ: هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الرِّعَايَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا تَقْوِيمُ المُرَبَّى، وَيُشْعِرُ كَلَامُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الرَّبَّ مَأْخُوذٌ مِنَ التَّرْبِيَةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «**الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِهِ**» فَكُلُّ العَالَمِينَ قَدْ رَبَّاهُمُ اللهُ بِنِعَمِهِ، وَأَعَدَّهُمْ لِمَا خُلِقُوا لَهُ، وَأَمَدَّهُمْ بِرِزْقِهِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مُحَاوَرَةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٠] فَكُلُّ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ قَدْ رَبَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِنِعَمِهِ.



وَهُوَ مَعْبُودِي، لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ[١] وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] [الفاتحة:٢] وَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ[٣].

وَنِعَمُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ كَثِيرَةٌ، لا يُمْكِنُ حَصْرُهَا، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨] فَاللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ وَأَعَدَّكَ، وَأَمَدَّكَ وَرَزَقَكَ، فَهُوَ وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

[١] أَيْ: وَهُوَ الَّذِي أَعْبُدُهُ وَأَتَذَلَّلُ لَهُ خُضُوعًا وَمَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا، أَفْعَلُ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ، وَأَتْرُكُ مَا يَنْهَانِي عَنْهُ، فَلَيْسَ لِي أَحَدٌ أَعْبُدُهُ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

[٢] اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِكَوْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُرَبِّيًا لِجَمِيعِ الخَلْقِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] يَعْنِي الوَصْفَ بِالكَمَالِ وَالجَلَالِ وَالعَظَمَةِ للهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: مُرَبِّيهِمْ بِالنِّعَمِ، وَخَالِقُهُمْ، وَمَالِكُهُمْ، وَالمُدَبِّرُ لَهُمْ، كَمَا شَاءَ عَزَّوَجَلَّ.

[٣] العَالَمُ: كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ، وَسُمُّوا عَالَمًا؛ لِأَنَّهُمْ عَلَمٌ عَلَى خَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ وَمُدَبِّرِهِمْ، فَفِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ للهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ.

وَأَنَا -المُجِيبَ بِهَذَا- وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ، وَإِذَا كَانَ رَبِّي وَجَبَ عَلَيَّ أَنْ أَعْبُدَهُ وَحْدَهُ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ[٢]؟

فَقُلْ بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ[٣] وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا[٤]؛ ....

---

[٢] أَيْ: إِذَا قِيلَ لَكَ: بِأَيِّ شَيْءٍ عَرَفْتَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ؟ فَقُلْ: عَرَفْتُهُ بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

[٣] الآيَاتُ: جَمْعُ آيَةٍ، وَهِيَ العَلَامَةُ عَلَى الشَّيْءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُبَيِّنُهُ.

وَآيَاتُ اللهِ تَعَالَى نَوْعَانِ: كَوْنِيَّةٌ وَشَرْعِيَّةٌ، فَالكَوْنِيَّةُ هِيَ المَخْلُوقَاتُ، وَالشَّرْعِيَّةُ هِيَ الوَحْيُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى رُسُلِهِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ**» مِنْ بَابِ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى العَامِّ، إِذَا فَسَّرْنَا الآيَاتِ بِأَنَّهَا الآيَاتُ الكَوْنِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ، أَوْ مِنْ بَابِ عَطْفِ المُبَايِنِ المُغَايِرِ إِذَا خَصَّصْنَا الآيَاتِ بِالآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ.

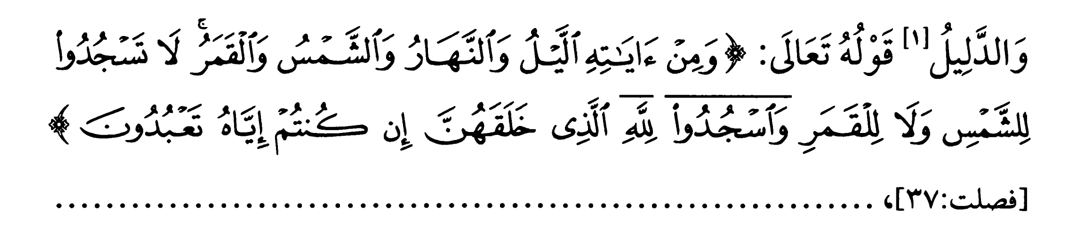
وَعَلَى كُلٍّ: فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ، وَهِيَ المَخْلُوقَاتُ العَظِيمَةُ، وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الصَّنْعَةِ وَبَالِغِ الحِكْمَةِ، وَكَذَلِكَ يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ العَدْلِ، وَالِاشْتِمَالِ عَلَى المَصَالِحِ، وَدَفْعِ المَفَاسِدِ.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ(١)

[٤] كُلُّ هَذِهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ القُدْرَةِ، وَكَمَالِ الحِكْمَةِ، وَكَمَالِ الرَّحْمَةِ؛ فَالشَّمْسُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِكَوْنِهَا تَسِيرُ سَيْرًا مُنْتَظِمًا بَدِيعًا مُنْذُ خَلَقَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَإِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى بِخَرَابِ العَالَمِ، فَهِيَ تَسِيرُ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨] وَهِيَ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى بِحَجْمِهَا وَآثَارِهَا، أَمَّا حَجْمُهَا فَعَظِيمٌ كَبِيرٌ، وَأَمَّا آثَارُهَا فَمَا يَحْصُلُ

---

(١) من شعر أبي العتاهية. ديوانه (ص:١٢٢)، وانظر: معاهد التنصيص (٢/ ٢٨٦).


وَالدَّلِيلُ[١] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]، ....

مِنْهَا مِنَ المَنَافِعِ لِلأَجْسَامِ وَالأَشْجَارِ وَالأَنْهَارِ وَالبِحَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الشَّمْسِ -هَذِهِ الآيَةِ العَظِيمَةِ- مَا مَدَى البُعْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّنَا نَجِدُ حَرَارَتَهَا، هَذِهِ الحَرَارَةُ العَظِيمَةُ.

ثُمَّ انْظُرْ مَاذَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الإِضَاءَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا تَوْفِيرُ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ عَلَى النَّاسِ، فَإِنَّ النَّاسَ فِي النَّهَارِ يَسْتَغْنَوْنَ عَنْ كُلِّ إِضَاءَةٍ، وَيَحْصُلُ بِهَا مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ لِلنَّاسِ مِنْ تَوْفِيرِ أَمْوَالِهِمْ، وَيُعَدُّ هَذَا مِنَ الآيَاتِ الَّتِي لَا نُدْرِكُ إِلَّا اليَسِيرَ مِنْهَا.

كَذَلِكَ القَمَرُ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ، لِكُلِّ لَيْلَةٍ مَنْزِلَةٌ ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩] فَهُوَ يَبْدُو صَغِيرًا، ثُمَّ يَكْبُرُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حَتَّى يَكْمُلَ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى النَّقْصِ، وَهُوَ يُشْبِهُ الإِنْسَانَ؛ حَيْثُ إِنَّهُ يُخْلَقُ مِنْ ضِعْفٍ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَرَقَّى مِنْ قُوَّةٍ إِلَى قُوَّةٍ حَتَّى يَعُودَ إِلَى الضَّعْفِ مَرَّةً أُخْرَى، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ.

[١] أَيْ: وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ إِلَخْ. أَيْ: مِنَ العَلَامَاتِ البَيِّنَةِ المُبَيِّنَةِ لِمَدْلُولِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي ذَاتِهِمَا وَاخْتِلَافِهِمَا، وَمَا أَوْدَعَ اللهُ فِيهِمَا مِنْ مَصَالِحِ العِبَادِ، وَتَقَلُّبَاتِ أَحْوَالِهِمْ، وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ فِي ذَاتِهِمَا وَسَيْرِهِمَا وَانْتِظَامِهِمَا، وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ العِبَادِ وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ.

وَقَوْلُهُ[٢] تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

ثُمَّ نَهَى اللهُ تَعَالَى العِبَادَ أَنْ يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ أَوِ القَمَرِ وَإِنْ بَلَغَا مَبْلَغًا عَظِيمًا فِي نُفُوسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يَسْتَحِقَّانِ العِبَادَةَ؛ لِكَوْنِهِمَا مَخْلُوقَيْنِ، وَإِنَّمَا الْمُسْتَحِقُّ لِلعِبَادَةِ هُوَ اللهُ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَهُنَّ.

[٢] وَقَوْلُهُ: أَيْ: مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيَةَ، وَفِيهَا مِنْ آيَاتِ اللهِ:

أَوَّلًا: أَنَّ اللهَ خَلَقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ العَظِيمَةَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهَا بِلَحْظَةٍ، وَلَكِنَّهُ رَبَطَ الْمُسَبَّبَاتِ بِأَسْبَابِهَا، كَمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.

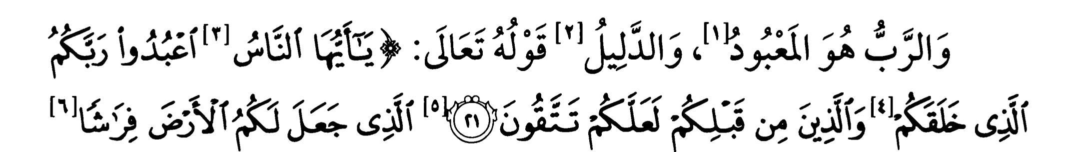
ثَانِيًا: أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ، أَيْ: عَلَا عَلَيْهِ عُلُوًّا خَاصًّا بِهِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا عُنْوَانُ كَمَالِ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ.

ثَالِثًا: أَنَّهُ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، بِأَنْ يَجْعَلَ اللَّيْلَ غِشَاءً لِلنَّهَارِ، أَيْ غِطَاءً لَهُ، فَهُوَ كَالثَّوْبِ يُسْدَلُ عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ فَيُغَطِّيهِ.

رَابِعًا: أَنَّهُ جَعَلَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُذَلَّلَاتٍ بِأَمْرِهِ جَلَّ سُلْطَانُهُ، يَأْمُرُهُنَّ بِمَا يَشَاءُ لِمَصْلَحَةِ العِبَادِ.

خَامِسًا: عُمُومُ مُلْكِهِ وَتَمَامُ سُلْطَانُهُ حَيْثُ كَانَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ لَا لِغَيْرِهِ.

سَادِسًا: عُمُومُ رُبُوبِيَّتِهِ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ.


وَالرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ[١]، وَالدَّلِيلُ[٢] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ[٣] ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ[٤] وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾[٥] ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا[٦]

---

[١] يُشِيرُ الْمُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- إِلَى قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]. فَالرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ، أَيْ: هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، أَوْ: هُوَ الَّذِي يُعْبَدُ لِاسْتِحْقَاقِهِ لِلعِبَادَةِ، وَلَيْسَ المَعْنَى أَنَّ كُلَّ مَنْ عُبِدَ فَهُوَ رَبٌّ، فَالآلِهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ وَاتَّخَذَهَا عُبَّادُهَا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ لَيْسَتْ أَرْبَابًا، وَالرَّبُّ هُوَ الخَالِقُ المَالِكُ المُدَبِّرُ لِجَمِيعِ الأُمُورِ.

[٢] أَيِ: الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

[٣] النِّدَاءُ مُوَجَّهٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ مِنْ بَنِي آدَمَ، أَمَرَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا يَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ إِنَّمَا اسْتَحَقَّ العِبَادَةَ؛ لِكَوْنِهِ هُوَ الخَالِقَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

[٤] قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ هَذِهِ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ تُعَلِّلُ مَا سَبَقَ، أَيِ: اعْبُدُوهُ؛ لِأَنَّهُ رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْ أَجْلِ كَوْنِهِ الرَّبَّ الخَالِقَ كَانَ لِزَامًا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلِهَذَا نَقُولُ يَلْزَمُ كُلَّ مَنْ أَقَرَّ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ، وَإِلَّا كَانَ مُتَنَاقِضًا.

[٥] أَيْ: مِنْ أَجْلِ أَنْ تَحْصُلُوا عَلَى التَّقْوَى، وَالتَّقْوَى هِيَ اتِّخَاذُ وِقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

[٦] أَيْ: جَعَلَهَا فِرَاشًا وَمِهَادًا نَسْتَمْتِعُ فِيهَا مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا تَعَبٍ، كَمَا يَنَامُ الإِنْسَانُ عَلَى فِرَاشِهِ.

وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً[١] وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً[٢] فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ[٣] فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا[٤] وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[٥] [البقرة:٢١-٢٢].

قَال ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى[٦]-: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ».

---

[١] أَيْ: فَوْقَنَا؛ لِأَنَّ البِنَاءَ يَصِيرُ فَوْقَ السَّمَاءِ بِنَاءً لِأَهْلِ الأَرْضِ، وَهِيَ سَقْفٌ مَحْفُوظٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٢].

[٢] أَيْ: أَنْزَلَ مِنَ العُلُوِّ مِنَ السَّحَابِ مَاءً طَهُورًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٌ وَمِنۡهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

[٣] أَيْ: عَطَاءً لَكُمْ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات: ٣٣].

[٤] أَيْ: لَا تَجْعَلُوا لِهَذَا الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ -لَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا تَعْبُدُونَهَا كَمَا تَعْبُدُونَ اللهَ، أَوْ تُحِبُّونَهَا كَمَا تُحِبُّونَ اللهَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ لَائِقٍ بِكُمْ لَا عَقْلًا وَلَا شَرْعًا.

[٥] أَيْ: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا نِدَّ لَهُ، وَأَنَّهُ بِيَدِهِ الخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالتَّدْبِيرُ؛ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًا فِي العِبَادَةِ.

[٦] هُوَ عِمَادُ الدِّينِ أَبُو الفِدَاءِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ القُرَشِيُّ الدِّمَشْقِيُّ الحَافِظُ المُشْهُورُ، صَاحِبُ التَّفْسِيرِ وَالتَّارِيخِ، مِنْ تَلَامِيذِ شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، تُوُفِّيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِ مِئَةٍ.

وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا[١]: مِثْلُ الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، ....

[١] لـمَّا بَيَّنَ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّ الوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَيَّنَ فِيمَا يَأْتِي شَيْئًا مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، فَقَالَ: وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ مِثْلُ الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ.

وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ -الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ- هِيَ الدِّينُ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**. قَال: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَال: **«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَال: **«مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»**. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَال: **«أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ»**. ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: **«يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟»** قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **«فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»**(١) فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الأَشْيَاءَ هِيَ الدِّينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلدِّينِ كُلِّهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨).

وَالإِحْسَانِ؛ وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاِسْتِعَانَةُ، وَالاِسْتِعَاذَةُ، وَالاِسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا كُلُّهَا للهِ تَعَالَى[١]. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

فَمَنْ صَرَفَ مِنهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢] [المؤمنون:١١٧].

---

[١] أَيْ: كُلُّ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ مِمَّا ذُكِرَ وَغَيْرُهُ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا يَحِلُّ صَرْفُهَا لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى.

[٢] ذَكَرَ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- جُمْلَةً مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، وَذَكَرَ أَنَّ مَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الآيَةِ الأُولَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ المَسَاجِدَ وَهِيَ مَوَاضِعُ السُّجُودِ أَوْ أَعْضَاءُ السُّجُودِ للهِ، وَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أَيْ: لَا تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ فَتَسْجُدُوا لَهُ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الآيَةِ الثَّانِيَةِ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ مَنْ يَدْعُو مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَإِنَّهُ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بُرْهَانٌ عَلَى تَعَدُّدِ

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ». وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] [غافر:٦٠].

الآلِـهَةِ، فَهَذِهِ الصِّفَةُ ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ مُبَيِّنَةٌ لِلْأَمْرِ، وَلَيْسَتْ صِفَةً مُقَيِّدَةً تُخْرِجُ مَا فِيهِ بُرْهَانٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ.

[١] هَذَا شُرُوعٌ مِنَ المُؤَلِّفِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي أَدِلَّةِ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي قَوْلِهِ: «**وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ وَمِنْهُ الدُّعَاءُ...**» إِلَخْ، فَبَدَأَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِذِكْرِ الأَدِلَّةِ عَلَى الدُّعَاءِ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَفْصِيلُ أَدِلَّةِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ.

وَاسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِمَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»(١) وَاسْتَدَلَّ كَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

فَدَلَّتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ مِنَ العِبَادَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فَمَنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِشَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، سَوَاءٌ كَانَ المَدْعُوُّ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا. وَمَنْ دَعَا حَيًّا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: يَا فُلَانُ أَطْعِمْنِي، يَا فُلَانُ أَسْقِنِي. فَلَا شَيْءَ فِيهِ، وَمَنْ دَعَا مَيِّتًا أَوْ غَائِبًا بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ؛ لِأَنَّ المَيِّتَ أَوِ الغَائِبَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ بِمِثْلِ هَذَا، فَدُعَاؤُهُ إِيَّاهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ تَصَرُّفًا فِي الكَوْنِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ مُشْرِكًا.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب فضل الدعاء، رقم (٣٣٧١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَدَلِيلُ الخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١] [آل عمران:١٧٥].

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّعَاءَ نَوْعَانِ: دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ وَدُعَاءُ عِبَادَةٍ.

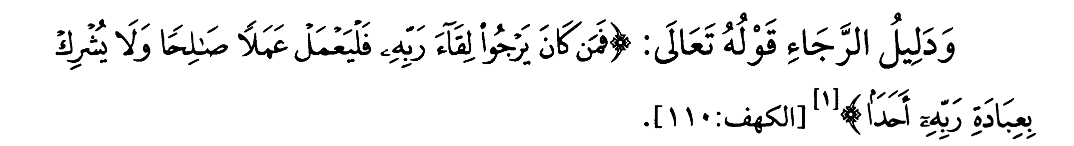
فَدُعَاءُ المَسْأَلَةِ هُوَ دُعَاءُ الطَّلَبِ، أَيْ طَلَبِ الحَاجَاتِ، وَهُوَ عِبَادَةٌ إِذَا كَانَ مِنَ العَبْدِ لِرَبِّهِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الِافْتِقَارَ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَاللُّجُوءَ إِلَيْهِ، وَاعْتِقَادَ أَنَّهُ قَادِرٌ كَرِيمٌ وَاسِعُ الفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. وَيَجُوزُ إِذَا صَدَرَ مِنَ العَبْدِ لِمِثْلِهِ مِنَ المَخْلُوقِينَ إِذَا كَانَ المَدْعُوُّ يَعْقِلُ الدُّعَاءَ، وَيَقْدِرُ عَلَى الإِجَابَةِ، كَمَا سَبَقَ فِي قَوْلِ القَائِلِ: يَا فُلَانُ أَطْعِمْنِي.

وَأَمَّا دُعَاءُ العِبَادَةِ فَأَنْ يَتَعَبَّدَ بِهِ لِلْمَدْعُوِّ؛ طَلَبًا لِثَوَابِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ لِغَيْرِ اللهِ، وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ أَكْبَرُ، مُخْرِجٌ عَنِ المِلَّةِ، وَعَلَيْهِ يَقَعُ الوَعِيدُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

[١] الخَوْفُ: هُوَ الذُّعْرُ، وَهُوَ انْفِعَالٌ يَحْصُلُ بِتَوَقُّعِ مَا فِيهِ هَلَاكٌ أَوْ ضَرَرٌ أَوْ أَذًى، وَقَدْ نَهَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ خَوْفِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَأَمَرَ بِخَوْفِهِ وَحْدَهُ.

وَالخَوْفُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الأَوَّلُ: خَوْفٌ طَبِيعِيٌّ كَخَوْفِ الإِنْسَانِ مِنَ السَّبُعِ وَالنَّارِ وَالغَرَقِ، وَهَذَا لَا يُلَامُ عَلَيْهِ العَبْدُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨] لَكِنْ إِذَا كَانَ هَذَا الخَوْفُ -كَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- سَبَبًا لِتَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ كَانَ حَرَامًا؛ لِأَنَّ مَا كَانَ سَبَبًا لِتَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ فَهُوَ حَرَامٌ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].


وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1] [الكهف:١١٠].

وَالخَوْفُ مِنَ اللهِ تَعَالَى يَكُونُ مَحْمُودًا، وَيَكُونُ غَيْرَ مَحْمُودٍ.

فَالمَحْمُودُ مَا كَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللهِ، بِحَيْثُ يَحْمِلُكَ عَلَى فِعْلِ الوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ، فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الغَايَةُ سَكَنَ القَلْبُ، وَاطْمَأَنَّ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ الفَرَحُ بِنِعْمَةِ اللهِ، وَالرَّجَاءُ لِثَوَابِهِ.

وَغَيْرُ المَحْمُودِ مَا يَحْمِلُ العَبْدَ عَلَى اليَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَالقُنُوطِ، وَحِينَئِذٍ يَتَحَسَّرُ العَبْدُ، وَيَنْكَمِشُ، وَرُبَّمَا يَتَمَادَى فِي المَعْصِيَةِ؛ لِقُوَّةِ يَأْسِهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: خَوْفُ العِبَادَةِ، أَنْ يَخَافَ أَحَدًا يَتَعَبَّدُ بِالخَوْفِ لَهُ، فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا للهِ تَعَالَى، وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى شِرْكٌ أَكْبَرُ.

النَّوْعُ الثَّالِثُ: خَوْفُ السِّرِّ، كَأَنْ يَخَافَ صَاحِبَ القَبْرِ، أَوْ وَلِيًّا بَعِيدًا عَنْهُ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ، لَكِنَّهُ يَخَافُهُ مَخَافَةَ سِرٍّ، فَهَذَا أَيْضًا ذَكَرَهُ العُلَمَاءُ مِنَ الشِّرْكِ.

[١] الرَّجَاءُ طَمَعُ الإِنْسَانِ فِي أَمْرٍ قَرِيبِ المَنَالِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي بَعِيدِ المَنَالِ تَنْزِيلًا لَهُ مَنْزِلَةَ القَرِيبِ.

وَالرَّجَاءُ المُتَضَمِّنُ لِلذُّلِّ وَالخُضُوعِ لَا يَكُونُ إِلَّا للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى شِرْكٌ، إِمَّا أَصْغَرُ وَإِمَّا أَكْبَرُ، بِحَسَبِ مَا يَقُومُ بِقَلْبِ الرَّاجِي. وَقَدِ اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجَاءَ المَحْمُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ وَرَجَا ثَوَابَهَا، أَوْ تَابَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَرَجَا قَبُولَ تَوْبَتِهِ، فَأَمَّا الرَّجَاءُ بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ غُرُورٌ وَتَمَنٍّ مَذْمُومٌ.

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]، وَقَالَ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[1] [الطلاق:٣].

---

[١] التَّوَكُّلُ عَلَى الشَّيْءِ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ. وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ تَعَالَى: الِاعْتِمَادُ عَلَى اللهِ تَعَالَى كِفَايَةً وَحَسْبًا فِي جَلْبِ المَنَافِعِ وَدَفْعِ المَضَارِّ، وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الإِيمَانِ وَعَلَامَاتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وَإِذَا صَدَقَ العَبْدُ فِي اعْتِمَادِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى مَا أَهَمَّهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ أَيْ: كَافِيهِ، ثُمَّ طَمْأَنَ المُتَوَكِّلَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطلاق:٣] فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ التَّوَكُّلَ أَنْوَاعٌ:

الأَوَّلُ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الإِيمَانِ وَعَلَامَاتِ صِدْقِهِ، وَهُوَ وَاجِبٌ لَا يَتِمُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِهِ، وَسَبَقَ دَلِيلُهُ.

الثَّانِي: تَوَكُّلُ السِّرِّ بِأَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَيِّتٍ فِي جَلْبِ مَنْفَعَةٍ، أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَذَا المَيِّتِ تَصَرُّفًا سِرِّيًّا فِي الكَوْنِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ طَاغُوتًا عَدُوًّا للهِ تَعَالَى.

الثَّالِثُ: التَّوَكُّلُ عَلَى الغَيْرِ فِيمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الغَيْرُ، مَعَ الشُّعُورِ بِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ وَانْحِطَاطِ مَرْتَبَةِ المُتَوَكِّلِ عَنْهُ، مِثْلَ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي حُصُولِ المَعَاشِ وَنَحْوِهِ، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ؛ لِقُوَّةِ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِهِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ. أَمَّا لَوِ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ سَبَبٌ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي قَدَّرَ ذَلِكَ عَلَى يَدِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا بَأْسَ بِهِ، إِذَا كَانَ لِلْمُتَوَكَّلِ عَلَيْهِ أَثَرٌ صَحِيحٌ فِي حُصُولِهِ.

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ[١] وَالرَّهْبَةِ[٢] وَالخُشُوعِ[٣]، ....

الرَّابِعُ: التَّوَكُّلُ عَلَى الغَيْرِ فِيمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ المُتَوَكِّلُ، بِحَيْثُ يُنِيبُ غَيْرَهُ فِي أَمْرٍ تَجُوزُ فِيهِ النِّيَابَةُ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ بِدَلَالَةِ الكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَالإِجْمَاعِ:

فَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧].

وَوَكَّلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّدَقَةِ عُمَّالًا(١) وَحُفَّاظًا(٢)، وَوَكَّلَ فِي إِثْبَاتِ الحُدُودِ وَإِقَامَتِهَا(٣)، وَوَكَّلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَدْيِهِ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِجُلُودِهَا وَجِلَالِهَا(٤)، وَأَنْ يَنْحَرَ مَا بَقِيَ مِنَ المِئَةِ بَعْدَ أَنْ نَحَرَ ﷺ بِيَدِهِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ(٥).

وَأَمَّا الإِجْمَاعُ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ فَمَعْلُومٌ مِنْ حَيْثُ الجُمْلَةِ.

[١] الرَّغْبَةُ: مَحَبَّةُ الوُصُولِ إِلَى الشَّيْءِ المَحْبُوبِ.

[٢] وَالرَّهْبَةُ: الخَوْفُ المُثْمِرُ لِلهَرَبِ مِنَ المَخُوفِ، فَهِيَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِعَمَلٍ.

[٣] الـخُشُوعُ: الذُّلُّ وَالتَّطَامُنُ لِعَظَمَةِ اللهِ، بِحَيْثُ يَسْتَسْلِمُ لِقَضَائِهِ الكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدى له، رقم (٦٩٧٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، رقم (١٨٣٢)، من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب الوكالة في الحدود، رقم (٢٣١٤)، ومسلم: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، رقم (١٦٩٧)، من حديث زيد بن خالد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب يتصدق بجلود الهدي، رقم (١٧١٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب في الصدقة بلحوم الهدي وجلودها وجلالها، رقم (١٣١٧)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[١] [الأنبياء:٩٠].

وَدَلِيلُ الخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[٢] [البقرة:١٥٠].

---

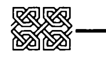
[١] فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى الخُلَّصَ مِنْ عِبَادِهِ بِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى رَغَبًا وَرَهَبًا مَعَ الخُشُوعِ لَهُ، وَالدُّعَاءُ هُنَا شَامِلٌ لِدُعَاءِ العِبَادَةِ وَدُعَاءِ المَسْأَلَةِ، فَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ، وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، مَعَ خَوْفِهِمْ مِنْ عِقَابِهِ وَآثَارِ ذُنُوبِهِمْ، وَالمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَسْعَى إِلَى اللهِ تَعَالَى بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَيُغَلِّبُ الرَّجَاءَ فِي جَانِبِ الطَّاعَةِ لِيَنْشَطَ عَلَيْهَا وَيُؤَمِّلَ قَبُولَهَا، وَيُغَلِّبُ الخَوْفَ إِذَا هَمَّ بِالمَعْصِيَةِ؛ لِيَهْرُبَ مِنْهَا، وَيَنْجُوَ مِنْ عِقَابِهَا.

وَقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: يُغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ فِي حَالِ المَرَضِ وَجَانِبَ الخَوْفِ فِي حَالِ الصِّحَّةِ؛ لِأَنَّ المَرِيضَ مُنْكَسِرٌ، ضَعِيفُ النَّفْسِ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ فَيَمُوتَ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَفِي حَالِ الصِّحَّةِ يَكُونُ نَشِيطًا مُؤَمِّلًا طُولَ البَقَاءِ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى الأَشَرِ وَالبَطَرِ، فَيُغَلِّبُ جَانِبَ الخَوْفِ؛ لِيَسْلَمَ مِنْ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: يَكُونُ رَجَاؤُهُ وَخَوْفُهُ وَاحِدًا سَوَاءً؛ لِئَلَّا يَحْمِلَهُ الرَّجَاءُ عَلَى الأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالخَوْفُ عَلَى اليَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَكِلَاهُمَا قَبِيحٌ مُهْلِكٌ لِصَاحِبِهِ.

[٢] الخَشْيَةُ: هِيَ الخَوْفُ المَبْنِيُّ عَلَى العِلْمِ بِعَظَمَةِ مَنْ يَخْشَاهُ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] أَيِ: العُلَمَاءُ بِعَظَمَتِهِ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ، فَهِيَ أَخَصُّ مِنَ الخَوْفِ.

وَيَتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِالمِثَالِ، فَإِذَا خِفْتَ مِنْ شَخْصٍ لَا تَدْرِي هَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكَ أَمْ لَا فَهَذَا خَوْفٌ، وَإِذَا خِفْتَ مِنْ شَخْصٍ تَعْلَمُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْكَ فَهَذِهِ خَشْيَةٌ.



وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[١] [الزمر:٥٤].

وَدَلِيلُ الاِسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[٢].

وَيُقَالُ فِي أَقْسَامِ أَحْكَامِ الخَشْيَةِ مَا يُقَالُ فِي أَقْسَامِ أَحْكَامِ الخَوْفِ.

[١] الإِنَابَةُ: الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ بِالقِيَامِ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَعْنَى التَّوْبَةِ، إِلَّا أَنَّهَا أَرَقُّ مِنْهَا لِمَا تُشْعِرُ بِهِ مِنَ الاِعْتِمَادِ عَلَى اللهِ وَاللُّجُوءِ إِلَيْهِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا للهِ تَعَالَى.

وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾، وَالمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ الإِسْلَامُ الشَّرْعِيُّ، وَهُوَ الاِسْتِسْلَامُ لِأَحْكَامِ اللهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الإِسْلَامَ للهِ تَعَالَى نَوْعَانِ:

الأَوَّلُ: إِسْلَامٌ كَوْنِيٌّ، وَهُوَ الاِسْتِسْلَامُ لِحُكْمِهِ الكَوْنِيِّ، وَهَذَا عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ، لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَكْبِرَ عَنْهُ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

الثَّانِي: إِسْلَامٌ شَرْعِيٌّ، وَهُوَ الاِسْتِسْلَامُ لِحُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ، وَهَذَا خَاصٌّ بِمَنْ قَامَ بِطَاعَتِهِ مِنَ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ بِإِحْسَانٍ، وَدَلِيلُهُ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ، وَمِنْهُ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٢] الاِسْتِعَانَةُ طَلَبُ العَوْنِ وَهِيَ أَنْوَاعٌ:

الأَوَّلُ: الاِسْتِعَانَةُ بِاللهِ وَهِيَ: الاِسْتِعَانَةُ المُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ الذُّلِّ مِنَ العَبْدِ لِرَبِّهِ،

وَتَفْوِيضِ الأَمْرِ إِلَيْهِ، وَاعْتِقَادِ كِفَايَتِهِ، وَهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا للهِ تَعَالَى.

وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وَوَجْهُ الِاخْتِصَاصِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدَّمَ المَعْمُولَ ﴿إِيَّاكَ﴾ وَقَاعِدَةُ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا القُرْآنُ أَنَّ تَقْدِيمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ الحَصْرَ وَالِاخْتِصَاصَ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ صَرْفُ هَذَا النَّوْعِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى شِرْكًا مُخْرِجًا عَنِ المِلَّةِ.

الثَّانِي: الِاسْتِعَانَةُ بِالمَخْلُوقِ عَلَى أَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ عَلَى حَسَبِ المُسْتَعَانِ عَلَيْهِ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَى بِرٍّ فَهِيَ جَائِزَةٌ لِلْمُسْتَعِينِ مَشْرُوعَةٌ لِلْمُعِينِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

وَإِنْ كَانَتْ عَلَى إِثْمٍ فَهِيَ حَرَامٌ عَلَى المُسْتَعِينِ وَالمُعِينِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

وَإِنْ كَانَتْ عَلَى مُبَاحٍ فَهِيَ جَائِزَةٌ لِلْمُسْتَعِينِ وَالمُعِينِ، لَكِنِ المُعِينُ قَدْ يُثَابُ عَلَى ذَلِكَ ثَوَابَ الإِحْسَانِ إِلَى الغَيْرِ، وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ فِي حَقِّهِ مَشْرُوعَةً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

الثَّالِثُ: الِاسْتِعَانَةُ بِمَخْلُوقٍ حَيٍّ حَاضِرٍ غَيْرِ قَادِرٍ، فَهَذِهِ لَغْوٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا، مِثْلَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِشَخْصٍ ضَعِيفٍ عَلَى حَمْلِ شَيْءٍ ثَقِيلٍ.

الرَّابِعُ: الِاسْتِعَانَةُ بِالأَمْوَاتِ مُطْلَقًا أَوْ بِالأَحْيَاءِ عَلَى أَمْرٍ غَائِبٍ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ فَهَذَا شِرْكٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ شَخْصٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ تَصَرُّفًا خَفِيًّا فِي الكَوْنِ.



وَدَلِيلُ الِاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]. وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[1] [الناس:١].

الخَامِسُ: الِاسْتِعَانَةُ بِالأَعْمَالِ وَالأَحْوَالِ المَحْبُوبَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ مَشْرُوعَةٌ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:١٥٣].

وَقَدِ اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِلنَّوْعِ الأَوَّلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] وَقَوْلِهِ ﷺ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»(١).

[١] الِاسْتِعَاذَةُ: طَلَبُ الإِعَاذَةِ، وَالإِعَاذَةُ الحِمَايَةُ مِنْ مَكْرُوهٍ، فَالمُسْتَعِيذُ مُحْتَمٍ بِمَنِ اسْتَعَاذَ بِهِ وَمُعْتَصِمٌ بِهِ.

وَالِاسْتِعَاذَةُ أَنْوَاعٌ:

الأَوَّلُ: الِاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ تَعَالَى، وَهِيَ المُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ الِافْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِهِ، وَاعْتِقَادِ كِفَايَتِهِ، وَتَمَامِ حِمَايَتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَاضِرٍ أَوْ مُسْتَقْبَلٍ، صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، بَشَرٍ أَوْ غَيْرِ بَشَرٍ.

وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

الثَّانِي: الِاسْتِعَاذَةُ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ كَكَلَامِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



....

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»(١).

وَقَوْلُهُ: «أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»(٢).

وَقَوْلُهُ فِي دُعَاءِ الأَلَمِ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»(٣).

وَقَوْلُهُ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ»(٤).

وَقَوْلُهُ ﷺ حِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] فَقَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»(٥).

الثَّالِثُ: الِاسْتِعَاذَةُ بِالأَمْوَاتِ أَوِ بِالأَحْيَاءِ غَيْرِ الحَاضِرِينَ القَادِرِينَ عَلَى العَوْذِ، فَهَذَا شِرْكٌ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٨)، من حديث خولة بنت حكيم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٥)، وأبو داود : كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٧٤)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الخسف، رقم (٥٥٢٩)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، رقم (٣٨٧١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم، رقم (٢٢٠٢)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، رقم (٤٦٢٨) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الرَّابِعُ: الِاسْتِعَاذَةُ بِمَا يُمْكِنُ العَوْذُ بِهِ مِنَ المَخْلُوقِينَ مِنَ البَشَرِ أَوِ الأَمَاكِنِ أَوْ غَيْرِهَا فَهَذَا جَائِزٌ.

وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِكْرِ الفِتَنِ: «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[1] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا المَلْجَأَ وَالمَعَاذَ بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ» الحَدِيثَ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2].

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ»[3] الحَدِيثَ.

وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَعُوذُ عَائِذٌ بِالبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ...»[4] الحَدِيثَ.

وَلَكِنْ إِنِ اسْتَعَاذَ مِنْ شَرِّ ظَالِمٍ وَجَبَ إِيوَاؤُهُ وَإِعَاذَتُهُ بِقَدْرِ الإِمْكَانِ، وَإِنِ اسْتَعَاذَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى فِعْلِ مَحْظُورٍ أَوِ الهَرَبِ مِنْ وَاجِبٍ حَرُمَ إِيوَاؤُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٠١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٢٨٨٧)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، رقم (١٦٨٩).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، رقم (٢٨٨٢).



وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[1] [الأنفال:٩].

---

[١] الِاسْتِغَاثَةُ: طَلَبُ الغَوْثِ، وَهُوَ الإِنْقَاذُ مِنَ الشِّدَّةِ وَالهَلَاكِ، وَهُوَ أَقْسَامٌ:

الأَوَّلُ: الِاسْتِغَاثَةُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ وَأَكْمَلِهَا، وَهُوَ دَأْبُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

وَدَلِيلُهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حِينَ نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المُشْرِكِينَ فِي أَلْفِ رَجُلٍ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَدَخَلَ العَرِيشَ يُنَاشِدُ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ، رَافِعًا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**» وَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ بِرَبِّهِ رَافِعًا يَدَيْهِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ(١).

الثَّانِي: الِاسْتِغَاثَةُ بِالأَمْوَاتِ أَوِ بِالأَحْيَاءِ غَيْرِ الحَاضِرِينَ القَادِرِينَ عَلَى الإِغَاثَةِ، فَهَذَا شِرْكٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ تَصَرُّفًا خَفِيًّا فِي الكَوْنِ، فَيَجْعَلُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم (١٧٦٣)، من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾[1] [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

الثَّالِثُ: الِاسْتِغَاثَةُ بِالأَحْيَاءِ العَالِمِينَ القَادِرِينَ عَلَى الإِغَاثَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ كَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥].

الرَّابِعُ: الِاسْتِغَاثَةُ بِحَيٍّ غَيْرِ قَادِرٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ لَهُ قُوَّةً خَفِيَّةً، مِثْلَ أَنْ يَسْتَغِيثَ الغَرِيقُ بِرَجُلٍ مَشْلُولٍ، فَهَذَا لَغْوٌ وَسُخْرِيَةٌ بِمَنِ اسْتَغَاثَ بِهِ، فَيُمْنَعُ مِنْهُ لِهَذِهِ العِلَّةِ، وَلِعِلَّةٍ أُخْرَى وَهِيَ الغَرِيقُ رُبَّمَا اغْتَرَّ بِذَلِكَ غَيْرُهُ فَتَوَهَّمَ أَنَّ لِهَذَا المَشْلُولِ قُوَّةً خَفِيَّةً يُنْقِذُ بِهَا مِنَ الشِّدَّةِ.

[١] الذَّبْحُ إِزْهَاقُ الرُّوحِ بِإِرَاقَةِ الدَّمِ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ.

وَيَقَعُ عَلَى وُجُوهٍ:

الأَوَّلُ: أَنْ يَقَعَ عِبَادَةً بِأَنْ يَقْصِدَ بِهِ تَعْظِيمَ المَذْبُوحِ لَهُ، وَالتَّذَلُّلَ لَهُ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ، فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا للهِ تَعَالَى عَلَى الوَجْهِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى، وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ أَكْبَرُ.

وَدَلِيلُهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾.

الثَّانِي: أَنْ يَقَعَ إِكْرَامًا لِضَيْفٍ أَوْ وَلِيمَةً لِعُرْسٍ أَوْ نَحْوَ ذَلِك، فَهَذَا مَأْمُورٌ بِهِ، إِمَّا وُجُوبًا أَوِ اسْتِحْبَابًا؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ

وَدَلِيلُ النَّذْرِ[١] قَـوْلُهُ تَعَالَـى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[٢] [الإنسان:٧].

ضَيْفَهُ»(١) وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: «أَوْلِـمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»(٢).

الثَّالِثُ: أَنْ يَقَعَ عَلَى وَجْهِ التَّمَتُّعِ بِالأَكْلِ أَوِ الِاتِّجَارِ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنْ قِسْمِ المُبَاحِ، فَالأَصْلُ فِيهِ الإِبَاحَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧١-٧٢].

وَقَدْ يَكُونُ مَطْلُوبًا أَوْ مَنْهِيًّا عَنْهُ حَسْبَمَا يَكُونُ وَسِيلَةً لَهُ.

[١] أَيْ: دَلِيلُ كَوْنِ النَّذْرِ مِنَ العِبَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾.

[٢] وَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الآيَةِ أَنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَيْهِمْ لِإِيفَائِهِمُ النَّذْرَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ يُحِبُّ ذَلِكَ، وَكُلُّ مَحْبُوبٍ للهِ مِنَ الأَعْمَالِ فَهُوَ عِبَادَةٌ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّذْرَ الَّذِي امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ القَائِمِينَ بِهِ هُوَ جَمِيعُ العِبَادَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ العِبَادَاتِ الوَاجِبَةَ إِذَا شَرَعَ فِيهَا الإِنْسَانُ فَقَدِ التَزَمَ بِهَا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب كيف يدعى للمتزوج، رقم (٥١٥٥)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق، رقم (١٤٢٧)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالنَّذْرُ الَّذِي هُوَ إِلْزَامُ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مَا، أَوْ طَاعَةٍ للهِ غَيْرِ وَاجِبَةٍ مَكْرُوهٌ، وَقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: إِنَّهُ مُحَرَّمٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّذْرِ وَقَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ**»(١).

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِذَا نَذَرَ الإِنْسَانُ طَاعَةً للهِ وَجَبَ عَلَيْهِ فِعْلُهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»(٢).

وَالخُلَاصَةُ: أَنَّ النَّذْرَ يُطْلَقُ عَلَى العِبَادَاتِ المَفْرُوضَةِ عُمُومًا، وَيُطْلَقُ عَلَى النَّذْرِ الخَاصِّ، وَهُوَ إِلْزَامُ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ قَسَّمَ العُلَمَاءُ النَّذْرَ الخَاصَّ إِلَى أَقْسَامٍ، وَمَحَلُّ بَسْطِهَا كُتُبُ الفِقْهِ.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب الوفاء بالنذر، رقم (٦٦٩٢، ٦٦٩٣)، ومسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا، رقم (١٦٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الأَصْلُ الثَّانِي[١]:

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ، وَهُوَ: الِاسْتِسلامُ[٢] للهِ بِالتَّوْحِيدِ[٣] وَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ[٤]، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ[٥] ....

---

[١] أَيْ: مِنَ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ، يَعْنِي: أَنْ يَعْرِفَ دِينَ الإِسْلَامِ بِأَدِلَّتِهِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

[٢] دِينُ الإِسْلَامِ -وَإِنْ شِئْتَ فَقُلِ: الإِسْلَامُ- هُوَ «الِاسْتِسْلَامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ» فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ.

[٣] أَيْ: بِأَنْ يَسْتَسْلِمَ العَبْدُ لِرَبِّهِ اسْتِسْلَامًا شَرْعِيًّا؛ وَذَلِكَ بِتَوْحِيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ، وَهَذَا الإِسْلَامُ هُوَ الَّذِي يُحْمَدُ عَلَيْهِ العَبْدُ وَيُثَابُ عَلَيْهِ، أَمَّا الِاسْتِسْلَامُ القَدَرِيُّ فَلَا ثَوَابَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا حِيلَةَ لِلإِنْسَانِ فِيهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

[٤] وَذَلِكَ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ؛ لِأَنَّ الطَّاعَةَ طَاعَةٌ فِي الأَمْرِ بِفِعْلِهِ وَطَاعَةٌ فِي النَّهْيِ بِتَرْكِهِ.

[٥] البَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ أَيْ: أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ، وَيَتَخَلَّى مِنْهُ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ البَرَاءَةَ مِنْ أَهْلِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ[١]: الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ.

وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ[٢] فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ[٣]: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ[٤]، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ.

---

[١] بَيَّنَ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّ الدِّينَ الإِسْلَامِيَّ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَهِيَ: الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ.

[٢] دَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ فِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ جَاءَ جِبْرِيلُ يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ وَبَيَّنَ لَهُ ﷺ ذَلِكَ، وَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١).

[٣] دَلِيلُ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ»(٢).

[٤] شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ رُكْنٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا كَانَتَا رُكْنًا وَاحِدًا مَعَ أَنَّهُمَا مِنْ شِقَّيْنِ؛ لِأَنَّ العِبَادَاتِ تَنْبَنِي عَلَى تَحْقِيقِهِمَا مَعًا، فَلَا تُقْبَلُ العِبَادَةُ إِلَّا بِالإِخْلَاصِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ مَا تَتَضَمَّنُهُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ مَا تَتَضَمَّنُهُ شَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (١٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٢] [آل عمران:١٨]، وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ «لَا إِلَهَ» نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ «إِلَّا اللهُ» مُثْبِتًا العِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مِلْكِهِ[١].

---

[٢] فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ شَهَادَةُ اللهِ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَشَهَادَةُ المَلَائِكَةِ، وَشَهَادَةُ أَهْلِ العِلْمِ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَائِمٌ بِالقِسْطِ -أَيِ العَدْلِ- ثُمَّ قَرَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وَفِي هَذِهِ الآيَةِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَهْلِ العِلْمِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ شُهَدَاءُ مَعَهُ وَمَعَ المَلَائِكَةِ، وَالمُرَادُ بِهِمْ أُولُو العِلْمِ بِشَرِيعَتِهِ، وَيَدْخُلُ فِيهِمْ دُخُولًا أَوَّلِيًّا رُسُلُهُ الكِرَامُ.

وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ أَعْظَمُ شَهَادَةٍ؛ لِعِظَمِ الشَّاهِدِ وَالمَشْهُودِ بِهِ، فَالشَّاهِدُ هُوَ اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَأُولُو العِلْمِ، وَالمَشْهُودُ بِهِ تَوْحِيدُ اللهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

[١] قَوْلُهُ: «وَمَعْنَاهَا» أَيْ: مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: أَلَّا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَنْ يَعْتَرِفَ الإِنْسَانُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ بِأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ «إِلَهٌ» بِمَعْنَى مَأْلُوهٍ، وَالتَّأَلُّهُ: التَّعَبُّدُ.

وَجُمْلَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ، أَمَّا النَّفْيُ فَهُوَ «لَا إِلَهَ» وَأَمَّا الإِثْبَاتُ «إِلَّا اللهُ».

وَ(اللهُ) لَفْظُ الجَلَالَةِ بَدَلٌ مِنْ خَبَرِ (لَا) المَحْذُوفِ، وَالتَّقْدِيرُ «لَا إِلَهَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ».



وَبِتَقْدِيرِنَا الخَبَرَ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ (حَقٌّ) يَتَبَيَّنُ الجَوَابِ عَنِ الإِشْكَالِ التَّالِي، وَهُوَ: كَيْفَ يُقَالُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مَعَ أَنَّ هُنَاكَ آلِهَةً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَقَدْ سَمَّاهَا اللهُ تَعَالَى آلِهَةً، وَسَمَّاهَا عَابِدُوهَا آلِهَةً، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود:١١٠] وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ نُثْبِتَ الأُلُوهِيَّةَ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَالرُّسُلُ يَقُولُونَ لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]؟

وَالجَوَابُ عَلَى هَذَا الإِشْكَالِ يَتَبَيَّنُ بِتَقْدِيرِ الخَبَرِ فِي «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَنَقُولُ: هَذِهِ الآلِهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ هِيَ آلِهَةٌ، لَكِنَّهَا آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ، لَيْسَتْ آلِهَةً حَقَّةً، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ حَقِّ الأُلُوهِيَّةِ شَيْءٌ.

وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم:١٩-٢٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

إِذَنْ: فَمَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَأَمَّا المَعْبُودَاتُ سِوَاهُ فَإِنَّ أُلُوهِيَّتَهَا الَّتِي يَزْعُمُهَا عَابِدُوهَا لَيْسَتْ حَقِيقِيَّةً، أَيْ: أُلُوهِيَّةٌ بَاطِلَةٌ.



وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ[١] لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ[٢] مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى[٣] فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾[٤] وَجَعَلَهَا[٥] كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ[٦] لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٧] [الزخرف: ٢٦-٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ[٨] يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ....

---

[١] إِبْرَاهِيمُ هُوَ خَلِيلُ اللهِ، إِمَامُ الحُنَفَاءِ، وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَبُوهُ آزَرُ.

[٢] ﴿بَرَآءٌ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِنَ البَرَاءَةِ، وَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ بَرِيءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ يُوَافِي قَوْلَ: «لَا إِلَهَ».

[٣] خَلَقَنِي ابْتِدَاءً عَلَى الفِطْرَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يُوَافِي قَوْلَهُ: «إِلَّا اللهُ» فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤] فَفِي هَذِهِ الآيَةِ حَصْرُ الخَلْقِ وَالأَمْرِ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَحْدَهُ، فَلَهُ الخَلْقُ وَلَهُ الأَمْرُ الكَوْنِيُّ وَالشَّرْعِيُّ.

[٤] ﴿سَيَهْدِينِ﴾ سَيَدُلُّنِي عَلَى الحَقِّ وَيُوَفِّقُنِي لَهُ.

[٥] ﴿وَجَعَلَهَا ﴾ أَيْ: هَذِهِ الكَلِمَةَ، وَهِيَ البَرَاءَةُ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ.

[٦] ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾ فِي ذُرِّيَّتِهِ.

[٧] ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أَيْ: إِلَيْهَا مِنَ الشِّرْكِ.

[٨] الخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِمُنَاظَرَةِ أَهْلِ الكِتَابِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى.

تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ[١] سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ[٢] فَإِن تَوَلَّوْا[٣] فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٤] [آل عمران:٦٤].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ[٥] عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[٦] حَرِيصٌ عَلَيْكُم[٧] ....

---

[١] ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هَذِهِ الكَلِمَةُ هِيَ «أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، فَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللهَ» هِيَ مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَمَعْنَى ﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَنَّنَا نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ سَوَاءٌ فِيهَا.

[٢] أَيْ: لَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِحَيْثُ يُعَظَّمُ كَمَا يُعَظَّمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَيُعْبَدُ كَمَا يُعْبَدُ اللهُ، وَيُجْعَلُ الحُكْمُ لِغَيْرِهِ.

[٣] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَمَّا دَعَوْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ.

[٤] أَيْ: فَأَعْلِنُوا لَهُمْ وَأَشْهِدُوهُمْ أَنَّكُمْ مُسْلِمُونَ للهِ، بَرِيئُونَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ العِنَادِ وَالتَّوَلِّي عَنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ العَظِيمَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

[٥] قَوْلُهُ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ جِنْسِكُمْ، بَلْ هُوَ مِنْ بَيْنِكُمْ أَيْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

[٦] أَيْ: يَشُقُّ عَلَيْهِ مَا شَقَّ عَلَيْكُمْ.

[٧] أَيْ: عَلَى مَنْفَعَتِكُمْ وَدَفْعِ الضُّرِّ عَنْكُمْ.

بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[1] [التوبة:١٢٨].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ[2].

---

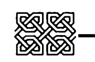
[١] أَيْ: ذُو رَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ ﷺ مَأْمُورٌ بِجِهَادِ الكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ.

وَهَذِهِ الأَوْصَافُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح:٢٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ حَقًّا.

[٢] مَعْنَى شَهَادَةِ «أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ» هُوَ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالإِيمَانُ بِالقَلْبِ بِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ القُرَشِيَّ الهَاشِمِيَّ رَسُولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَى جَمِيعِ الخَلْقِ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وَلَا عِبَادَةَ للهِ تَعَالَى إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الوَحْيِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وَمُقْتَضَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنْ تُصَدِّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا أَخْبَرَ، وَأَنْ تَمْتَثِلَ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَأَنْ تَجْتَنِبَ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا تَعْبُدَ اللهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَمُقْتَضَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَيْضًا أَنْ لَا تَعْتَقِدَ أَنَّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حَقًّا فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَصْرِيفِ الكَوْنِ، أَوْ حَقًّا فِي العِبَادَةِ، بَلْ هُوَ ﷺ عَبْدٌ لَا يُعْبَدُ، وَرَسُولٌ لَا يُكَذَّبُ، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ شَيْئًا مِنَ النَّفْعِ أَوِ الضُّرِّ، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى:



وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ[١] وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٢] ....

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام:٥٠] فَهُوَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ يَتَّبِعُ مَا أُمِرَ بِهِ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ لَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا مَنْ دُونَهُ مِنَ المَخْلُوقِينَ، وَأَنَّ العِبَادَةَ لَيْسَتْ إِلَّا للهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] وَأَنَّ حَقَّهُ ﷺ أَنْ تُنْزِلَهُ المَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا، وَهُوَ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

[١] أَيْ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ مِنَ الدِّينِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة:٥] وَهَذِهِ الآيَةُ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ فِيهَا مُخْلِصًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، حَنِيفًا، مُتَّبِعًا لِشَرِيعَتِهِ.

[٢] هَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى العَامِّ؛ لِأَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ مِنَ العِبَادَةِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَصَّ عَلَيْهِمَا؛ لِمَا لَهُمَا مِنَ الأَهَمِّيَّةِ، فَالصَّلَاةُ عِبَادَةُ البَدَنِ، وَالزَّكَاةُ عِبَادَةُ المَالِ، وَهُمَا قَرِينَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَذَٰلِكَ [١] دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[٢] [البينة:٥].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ[٣] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ....

---

[١] أَيْ: عِبَادَةُ اللهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ.

[٢] أَيْ: دِينُ المِلَّةِ القَيِّمَةِ الَّتِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا دِينُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَدِينُ اللهِ مُسْتَقِيمٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ كَمَا تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ العِبَادَةِ وَالصَّلَاةِ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ الإِخْلَاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى الشِّرْكِ، فَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ للهِ لَمْ يَكُنْ مُوَحِّدًا، وَمَنْ جَعَلَ عِبَادَتَهُ لِغَيْرِ اللهِ لَمْ يَكُنْ مُوَحِّدًا.

[٣] أَيْ: دَلِيلُ وُجُوبِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

وَفِي قَوْلِهِ ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فَوَائِدُ:

أَوَّلًا: أَهَمِّيَّةُ الصِّيَامِ؛ حَيْثُ فَرَضَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الأُمَمِ مِنْ قَبْلِنَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَهُ، وَأَنَّهُ لَازِمٌ لِكُلِّ أُمَّةٍ.

ثَانِيًا: التَّخْفِيفُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ؛ حَيْثُ إِنَّهَا لَمْ تُكَلَّفْ وَحْدَهَا بِالصِّيَامِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى النُّفُوسِ وَالأَبْدَانِ.

ثَالِثًا: الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَكْمَلَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ دِينَهَا؛ حَيْثُ أَكْمَلَ لَهَا الفَضَائِلَ الَّتِي سَبَقَتْ لِغَيْرِهَا.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] [البقرة: ١٨٣].

وَدَلِيلُ الحَجِّ[٢] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] [آل عمران:٩٧].

---

[١] بَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ حِكْمَةَ الصِّيَامِ بِقَوْلِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ: تَتَّقُونَ اللهَ بِصِيَامِكُمْ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ خِصَالِ التَّقْوَى، وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذِهِ الفَائِدَةِ بِقَوْلِهِ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(١).

[٢] أَيْ: دَلِيلُ وُجُوبِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ إِلَخْ.

وَهَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الهِجْرَةِ، وَبِهَا كَانَتْ فَرِيضَةُ الحَجِّ، وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَا حَجَّ عَلَيْهِ.

[٣] فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَرْكَ الحَجِّ مِمَّنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا يَكُونُ كُفْرًا.

وَلَكِنَّهُ كُفْرٌ لَا يُخْرِجُ مِنَ المِلَّةِ عَلَى قَوْلِ جُمْهُورِ العُلَمَاءِ؛ لِقَوْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، رقم (١٩٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢).

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ[١]: الإِيمَانُ[٢] وَهُوَ بِضْعٌ[٣] وَسَبْعُونَ شُعْبَةً[٤]، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى[٥] عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ[٦] شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ

---

[١] أَيْ: مِنْ مَرَاتِبِ الدِّينِ.

[٢] الإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ: التَّصْدِيقُ.

وَفِي الشَّرْعِ: «اعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالجَوَارِحِ، وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً».

[٣] البِضْعُ بِكَسْرِ البَاءِ: مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى التِّسْعَةِ.

[٤] الشُّعْبَةُ: الجُزْءُ مِنَ الشَّيْءِ.

[٥] أَيْ: إِزَالَةُ الأَذَى، وَهُوَ مَا يُؤْذِي المَارَّةَ مِنْ أَحْجَارٍ، وَأَشْوَاكٍ، وَنُفَايَاتٍ، وَقُمَامَةٍ، وَمَا لَهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

[٦] الحَيَاءُ: صِفَةٌ انْفِعَالِيَّةٌ تَحْدُثُ عِنْدَ الخَجَلِ، وَتَحْجِزُ المَرْءَ عَنْ فِعْلِ مَا يُخَالِفُ المُرُوءَةَ.

وَالجَمْعُ بَيْنَ مَا تَضَمَّنَهُ كَلَامُ المُؤَلِّفِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مِنْ أَنَّ الإِيمَانَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَأَنَّ الإِيمَانَ أَرْكَانُهُ سِتَّةٌ أَنْ نَقُولَ: الإِيمَانُ الَّذِي هُوَ العَقِيدَةُ أُصُولُهُ سِتَّةٌ، وَهِيَ المَذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَمَا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِيمَانِ فَقَالَ: **«الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ[1]، ....

وَأَمَّا الإِيمَانُ الَّذِي يَشْمَلُ الأَعْمَالَ وَأَنْوَاعَهَا وَأَجْنَاسَهَا فَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ وَلِهَذَا سَمَّى اللهُ تَعَالَى الصَّلَاةَ إِيمَانًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] قَالَ المُفَسِّرُونَ: يَعْنِي صَلَاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرُوا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الكَعْبَةِ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ.

[١] الإِيمَانُ بِاللهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ دَلَّ عَلَى وُجُودِهِ تَعَالَى: الفِطْرَةُ، وَالعَقْلُ، وَالشَّرْعُ، وَالحِسُّ.

١- أَمَّا دَلَالَةُ الفِطْرَةِ عَلَى وُجُودِهِ: فَإِنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ قَدْ فُطِرَ عَلَى الإِيمَانِ بِخَالِقِهِ مِنْ غَيْرِ سَبْقِ تَفْكِيرٍ أَوْ تَعْلِيمٍ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُقْتَضَى هَذِهِ الفِطْرَةِ إِلَّا مَنْ طَرَأَ عَلَى قَلْبِهِ مَا يَصْرِفُهُ عَنْهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١).

٢- وَأَمَّا دَلَالَةُ العَقْلِ عَلَى وُجُودِ اللهِ تَعَالَى: فَلِأَنَّ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ سَابِقَهَا وَلَاحِقَهَا لَابُدَّ لَهَا مِنْ خَالِقٍ أَوْجَدَهَا؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً.

لَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَخْلُقُ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ وُجُودِهِ مَعْدُومٌ فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً؛ لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، وَلِأَنَّ وُجُودَهَا عَلَى هَذَا النِّظَامِ البَدِيعِ، وَالتَّنَاسُقِ المُتَآلِفِ، وَالِارْتِبَاطِ المُلْتَحِمِ بَيْنَ الأَسْبَابِ وَمُسَبَّبَاتِهَا، وَبَيْنَ الكَائِنَاتِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ يَمْنَعُ مَنْعًا بَاتًّا أَنْ يَكُونَ وُجُودُهَا صُدْفَةً؛ إِذِ المَوْجُودُ صُدْفَةً لَيْسَ عَلَى نِظَامٍ فِي أَصْلِ وُجُودِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُنْتَظِمًا حَالَ بَقَائِهِ وَتَطَوُّرِهِ؟!

وَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تُوجِدَ هَذِهِ المَخْلُوقَاتُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُوجِدٌ، وَهُوَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الدَّلِيلَ العَقْلِيَّ وَالبُرْهَانَ القَطْعِيَّ فِي سُورَةِ الطُّورِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؛ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ خَالِقُهُمْ هُوَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فَبَلَغَ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧] وَكَانَ جُبَيْرٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا- قَالَ: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي». رَوَاهُ البُخَارِيُّ مُفَرَّقًا[1].

وَلْنَضْرِبْ مَثَلًا يُوَضِّحُ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَوْ حَدَّثَكَ شَخْصٌ عَنْ قَصْرٍ مُشَيَّدٍ، أَحَاطَتْ بِهِ الحَدَائِقُ، وَجَرَتْ بَيْنَهَا الأَنْهَارُ، وَمُلِئَ بِالفُرُشِ وَالأَسِرَّةِ، وَزُيِّنَ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ مِنْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٢٣)، وكتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الطور، رقم (٤٨٥٤).

مُقَوِّمَاتِهِ وَمُكَمِّلَاتِهِ، وَقَالَ لَكَ: إِنَّ هَذَا القَصْرَ وَمَا فِيهِ مِنْ كَمَالٍ قَدْ أَوْجَدَ نَفْسَهُ، أَوْ وُجِدَ هَكَذَا صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ -لَبَادَرْتَ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَتَكْذِيبِهِ، وَعَدَدْتَ حَدِيثَهُ سَفَهًا مِنَ القَوْلِ، أَفَيَجُوزُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الكَوْنُ الوَاسِعُ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ، وَأَفْلَاكِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَنِظَامِهِ البَدِيعِ البَاهِرِ، قَدْ أَوْجَدَ نَفْسَهُ، أَوْ وُجِدَ صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ؟!!

٣- وَأَمَّا دَلَالَةُ الشَّرْعِ عَلَى وُجُودِ اللهِ تَعَالَى: فَلِأَنَّ الكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ كُلَّهَا تَنْطِقُ بِذَلِكَ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الأَحْكَامِ المُتَضَمِّنَةِ لِمَصَالِحِ الخَلْقِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مِنْ رَبٍّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الأَخْبَارِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي شَهِدَ الوَاقِعُ بِصِدْقِهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مِنْ رَبٍّ قَادِرٍ عَلَى إِيجَادِ مَا أَخْبَرَ بِهِ.

٤- وَأَمَّا أَدِلَّةُ الحِسِّ عَلَى وُجُودِ اللهِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّنَا نَسْمَعُ وَنُشَاهِدُ مِنْ إِجَابَةِ الدَّاعِينَ، وَغَوْثِ المَكْرُوبِينَ - مَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى وُجُودِهِ تَعَالَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٧٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩] وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَ المَالُ، وَجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا، فَثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الجِبَالِ، فَلَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ. وَفِي الجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ قَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ أَوْ غَيْرُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ البِنَاءُ وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا. فَرَفَعَ يَدَيْهِ ﷺ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**».

فَمَا يُشِيرُ إِلَى نَاحِيَةٍ إِلَّا انْفَرَجَتْ[(١)].

وَمَا زَالَتْ إِجَابَةُ الدَّاعِينَ أَمْرًا مَشْهُودًا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا لِمَنْ صَدَقَ اللُّجُوءَ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَأَتَى بِشَرَائِطِ الإِجَابَةِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ آيَاتِ الأَنْبِيَاءِ -الَّتِي تُسَمَّى الْمُعْجِزَاتِ- وَيُشَاهِدُهَا النَّاسُ، أَوْ يَسْمَعُونَ بِهَا - بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى وُجُودِ مُرْسِلِهِمْ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّهَا أُمُورٌ خَارِجَةٌ عَنْ نِطَاقِ البَشَرِ، يُجْرِيهَا اللهُ تَعَالَى تَأْيِيدًا لِرُسُلِهِ وَنَصْرًا لَهُمْ.

مِثَالُ ذَلِكَ: آيَةُ مُوسَى ﷺ حِينَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ البَحْرَ، فَضَرَبَهُ، فَانْفَلَقَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا يَابِسًا، وَالمَاءُ بَيْنَهَا كَالجِبَالِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣].

وَمِثَالٌ ثَانٍ: آيَةُ عِيسَى ﷺ، حَيْثُ كَانَ يُحْيِي المَوْتَى وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩] وَقَالَ: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠].

وَمِثَالٌ ثَالِثٌ: لِمُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ طَلَبَتْ مِنْهُ قُرَيْشٌ آيَةً، فَأَشَارَ إِلَى القَمَرِ، فَانْفَلَقَ فِرْقَتَيْنِ فَرَآهُ النَّاسُ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:١-٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب تحويل الرداء في الاستسقاء، رقم (١٠١٣)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب رفع اليدين بالدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَهَذِهِ الآيَاتُ المَحْسُوسَةُ الَّتِي يُجْرِيهَا اللهُ تَعَالَى تَأْيِيدًا لِرُسُلِهِ، وَنَصْرًا لَهُمْ -تَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً عَلَى وُجُودِهِ تَعَالَى.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ:

أَيْ: بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الرَّبُّ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مُعِينَ.

وَالرَّبُّ: مَنْ لَهُ الخَلْقُ وَالمُلْكُ وَالأَمْرُ، فَلَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَلَا مَالِكَ إِلَّا هُوَ، وَلَا أَمْرَ إِلَّا لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] وَقَالَ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الخَلْقِ أَنْكَرَ رُبُوبِيَّةَ اللهِ سُبْحَانَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُكَابِرًا غَيْرَ مُعْتَقِدٍ بِمَا يَقُولُ، كَمَا حَصَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] لَكِنْ ذَلِكَ لَيْسَ عَنْ عَقِيدَةٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] وَقَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ فِيمَا حَكَى اللهُ عَنْهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢].

وَلِهَذَا كَانَ المُشْرِكُونَ يُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَى، مَعَ إِشْرَاكِهِمْ بِهِ فِي الأُلُوهِيَّةِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩].

وَقَالَ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧].

وَأَمْرُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ شَامِلٌ لِلأَمْرِ الكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ، فَكَمَا أَنَّهُ مُدَبِّرُ الكَوْنِ القَاضِي فِيهِ بِمَا يُرِيدُ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، فَهُوَ كَذَلِكَ الحَاكِمُ فِيهِ بِشَرْعِ العِبَادَاتِ، وَأَحْكَامِ المُعَامَلَاتِ، حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، فَمَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللهِ تَعَالَى مُشَرِّعًا فِي العِبَادَاتِ أَوْ حَاكِمًا فِي المُعَامَلَاتِ فَقَدْ أَشْرَكَ بِهِ وَلَمْ يُحَقِّقِ الإِيمَانَ.

الثَّالِثُ: الإِيمَانُ بِأُلُوهِيَّتِهِ:

أَيْ: «**بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الإِلَهُ الحَقُّ لَا شَرِيكَ لَهُ**» وَ(الإِلَهُ) بِمَعْنَى الـمَأْلُوهِ، أَيِ: (المَعْبُودِ) حُبًّا وَتَعْظِيمًا:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

وَكُلُّ مَا اتُّخِذَ إِلَـهًا مَعَ اللهِ يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَأُلُوهِيَّتُهُ بَاطِلَةٌ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢].

وَتَسْمِيَتُهَا آلِهَةً لَا يُعْطِيهَا حَقَّ الأُلُوهِيَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي اللَّاتِ وَالعُزَّى وَمَنَاةَ: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم:٢٣].

....

وَقَالَ عَنْ هُودٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ [الأعراف:٧١].

وَقَالَ عَنْ يُوسُفَ أَنَّهُ قَالَ لِصَاحِبَي السِّجْنِ: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

وَلِهَذَا كَانَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُونَ لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ وَلَكِنْ أَبَى ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً، يَعْبُدُونَهُمْ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَسْتَنْصِرُونَ بِهِمْ، وَيَسْتَغِيثُونَ.

وَقَدْ أَبْطَلَ اللهُ تَعَالَى اتِّخَاذَ الْمُشْرِكِينَ هَذِهِ الآلِهَةَ بِبُرْهَانَيْنِ عَقْلِيَّيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذِهِ الآلِهَةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الأُلُوهِيَّةِ، فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لَا تَخْلُقُ، وَلَا تَجْلِبُ نَفْعًا لِعَابِدِيهَا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرَرًا، وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ حَيَاةً وَلَا مَوْتًا، وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ السَّمَاوَاتِ، وَلَا يُشَارِكُونَ فِيهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ [الفرقان:٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

وَقَالَ: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢].

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَ تِلْكِ الآلِـهَةِ، فَإِنَّ اتِّخَاذَهَا آلِـهَةً مِنْ أَسْفَهِ السَّفَهِ، وَأَبْطَلِ البَاطِلِ.

الثَّانِي: أَنَّ هَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَحْدَهُ الرَّبُّ الخَالِقُ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يُوَحِّدُوهُ بِالأُلُوهِيَّةِ، كَمَا وَحَّدُوهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

وَقَالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧].

وَقَالَ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣١-٣٢].

الرَّابِعُ: الإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ:

أَيْ: إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَى الوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَمْثِيلٍ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وَقَالَ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

وَقَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وَقَدْ ضَلَّ فِي هَذَا الأَمْرِ طَائِفَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: (المُعَطِّلَةُ) الَّذِينَ أَنْكَرُوا الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ، أَوْ بَعْضَهَا، زَاعِمِينَ أَنَّ إِثْبَاتَهَا يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ، أَيْ: تَشْبِيهَ اللهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ.

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ لِوُجُوهٍ، مِنْهَا:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ لَوَازِمَ بَاطِلَةً كَالتَّنَاقُضِ فِي كَلَامِ اللهِ سُبْحَانَهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ إِثْبَاتُهَا يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ لَلَزِمَ التَّنَاقُضُ فِي كَلَامِ اللهِ، وَتَكْذِيبُ بَعْضِهِ بَعْضًا.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنِ اتِّفَاقِ الشَّيْئَيْنِ فِي اسْمٍ أَوْ صِفَةٍ أَنْ يَكُونَا مُتَمَاثِلَيْنِ، فَأَنْتَ تَرَى الشَّخْصَيْنِ يَتَّفِقَانِ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا إِنْسَانٌ سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، مُتَكَلِّمٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَمَاثَلَا فِي المَعَانِي الإِنْسَانِيَّةِ، وَالسَّمْعِ وَالبَصَرِ، وَالكَلَامِ، وَتَرَى الحَيَوَانَاتِ لَهَا أَيْدٍ وَأَرْجُلٌ وَأَعْيُنٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنِ اتِّفَاقِهَا هَذَا أَنْ تَكُونَ أَيْدِيهَا وَأَرْجُلُهَا وَأَعْيُنُهَا مُتَمَاثِلَةً.

فَإِذَا ظَهَرَ التَّبَايُنُ بَيْنَ المَخْلُوقَاتِ فِيمَا تَتَّفِقُ فِيهِ مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ صِفَاتٍ، فَالتَّبَايُنُ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ أَبْيَنُ وَأَعْظَمُ.

الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ: (المُشَبِّهَةُ) الَّذِينَ أَثْبَتُوا الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ مَعَ تَشْبِيهِ اللهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، زَاعِمِينَ أَنَّ هَذَا مُقْتَضَى دَلَالَةِ النُّصُوصِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُخَاطِبُ العِبَادَ بِمَا يَفْهَمُونَ.

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ لِوُجُوهٍ، مِنْهَا:

الأَوَّلُ: أَنَّ مُشَابَهَةَ اللهِ تَعَالَى لِخَلْقِهِ أَمْرٌ بَاطِلٌ، يُبْطِلُهُ العَقْلُ وَالشَّرْعُ، وَلَا يُمْكِنُ

أَنْ يَكُونَ مُقْتَضَى نُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَمْرًا بَاطِلًا.

الثَّانِي: أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَاطَبَ العِبَادَ بِمَا يَفْهَمُونَ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ المَعْنَى، أَمَّا الحَقِيقَةُ وَالكُنْهُ الَّذِي عَلَيْهِ ذَلِكَ المَعْنَى فَهُوَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

فَإِذَا أَثْبَتَ اللهُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ سَمِيعٌ، فَإِنَّ السَّمْعَ مَعْلُومٌ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ المَعْنَى (وَهُوَ إِدْرَاكُ الأَصْوَاتِ) لَكِنْ حَقِيقَةُ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَمْعِ اللهِ تَعَالَى غَيْرُ مَعْلُومَةٍ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ السَّمْعِ تَتَبَايَنُ حَتَّى فِي المَخْلُوقَاتِ، فَالتَّبَايُنُ فِيهَا بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ أَبْيَنُ وَأَعْظَمُ.

وَإِذَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ فَإِنَّ الِاسْتِوَاءَ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ المَعْنَى مَعْلُومٌ، لَكِنْ حَقِيقَةُ الِاسْتِوَاءِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهِ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَى عَرْشِهِ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الِاسْتِوَاءِ تَتَبَايَنُ فِي حَقِّ المَخْلُوقِ، فَلَيْسَ الِاسْتِوَاءُ عَلَى كُرْسِيٍّ مُسْتَقِرٍّ كَالِاسْتِوَاءِ عَلَى رَحْلِ بَعِيرٍ صَعْبٍ نَفُورٍ، فَإِذَا تَبَايَنَتْ فِي حَقِّ المَخْلُوقِ، فَالتَّبَايُنُ فِيهَا بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ أَبْيَنُ وَأَعْظَمُ.

وَالإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَى عَلَى مَا وَصَفْنَا يُثْمِرُ لِلمُؤْمِنِينَ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً، مِنْهَا:

الأُولَى: تَحْقِيقُ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى، بِحَيْثُ لَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ رَجَاءً وَلَا خَوْفًا، وَلَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ.

الثَّانِيَةُ: كَمَالُ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمِهِ بِمُقْتَضَى أَسْمَائِهِ الحُسْنَى وَصِفَاتِهِ العُلْيَا.

الثَّالِثَةُ: تَحْقِيقُ عِبَادَتِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ.

وَمَلَائِكَتِهِ[١]، ....

[١] المَلَائِكَةُ: عَالَمٌ غَيْبِيٌّ، مَخْلُوقُونَ، عَابِدُونَ للهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأُلُوهِيَّةِ شَيْءٌ، خَلَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ نُورٍ، وَمَنَحَهُمُ الانْقِيَادَ التَّامَّ لِأَمْرِهِ، وَالقُوَّةَ عَلَى تَنْفِيذِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ المِعْرَاجِ: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رُفِعَ لَهُ البَيْتُ المَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**»(١).

وَالإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِوُجُودِهِمْ.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِمَنْ عَلِمْنَا اسْمَهُ مِنْهُمْ بِاسْمِهِ (كَجِبْرِيلَ) وَمَنْ لَمْ نَعْلَمِ اسْمَهُ نُؤْمِنُ بِهِمْ إِجْمَالًا.

الثَّالِثُ: الإِيمَانُ بِمَا عَلِمْنَا مِنْ صِفَاتِهِمْ، كَصِفَةِ (جِبْرِيلَ) «فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ رَآهُ عَلَى صِفَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، وَلَهُ سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ(٢) قَدْ سَدَّ الأُفُقَ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٢)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

....

وَقَدْ يَتَحَوَّلُ المَلَكُ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى إِلَى هَيْئَةِ رَجُلٍ، كَمَا حَصَلَ (لِجِبْرِيلَ) حِينَ أَرْسَلَهُ تَعَالَى إِلَى مَرْيَمَ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، وَحِينَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، جَاءَهُ بِصِفَةِ رَجُلٍ شَدِيدِ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدِ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَالسَّاعَةِ، وَأَمَارَاتِهَا، فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ. ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

وَكَذَلِكَ المَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ، كَانُوا فِي صُورَةِ رِجَالٍ.

الرَّابِعُ: الإِيمَانُ بِمَا عَلِمْنَا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى، كَتَسْبِيحِهِ، وَالتَّعَبُّدِ لَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا بِدُونِ مَلَلٍ وَلَا فُتُورٍ.

وَقَدْ يَكُونُ لِبَعْضِهِمْ أَعْمَالٌ خَاصَّةٌ:

مِثْلُ: جِبْرِيلَ الأَمِينِ عَلَى وَحْيِ اللهِ تَعَالَى، يُرْسِلُهُ اللهُ بِهِ إِلَى الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

وَمِثْلُ: مِيكَائِيلَ المُوَكَّلِ بِالقَطْرِ، أَيْ بِالمَطَرِ وَالنَّبَاتِ.

وَمِثْلُ: إِسْرَافِيلَ المُوَكَّلِ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَعْثِ الخَلْقِ.

وَمِثْلُ: مَلَكِ المَوْتِ المُوَكَّلِ بِقَبْضِ الأَرْوَاحِ عِنْدَ المَوْتِ.

وَمِثْلُ: مَالِكٍ المُوَكَّلِ بِالنَّارِ، وَهُوَ خَازِنُ النَّارِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَمِثْلُ: المَلَائِكَةِ المُوَكَّلِينَ بِالأَجِنَّةِ فِي الأَرْحَامِ، إِذَا تَمَّ لِلإِنْسَانِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا وَأَمَرَهُ بِكَتْبِ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ.

وَمِثْلُ: المَلَائِكَةِ المُوَكَّلِينَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ وَكِتَابَتِهَا، لِكُلِّ شَخْصٍ مَلَكَانِ، أَحَدُهُمَا عَنِ اليَمِينِ، وَالثَّانِي عَنِ الشِّمَالِ.

وَمِثْلُ: المَلَائِكَةِ المُوَكَّلِينَ بِسُؤَالِ المَيِّتِ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ.

وَالإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ يُثْمِرُ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً، مِنْهَا:

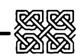
الأُولَى: العِلْمُ بِعَظَمَةِ اللهِ تَعَالَى، وَقُوَّتِهِ، وَسُلْطَانِهِ، فَإِنَّ عَظَمَةَ المَخْلُوقِ مِنْ عَظَمَةِ الخَالِقِ.

الثَّانِيَةُ: شُكْرُ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِنَايَتِهِ بِبَنِي آدَمَ؛ حَيْثُ وَكَّلَ مِنْ هَؤُلَاءِ المَلَائِكَةِ مَنْ يَقُومُ بِحِفْظِهِمْ، وَكِتَابَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ.

الثَّالِثَةُ: مَحَبَّةُ المَلَائِكَةِ عَلَى مَا قَامُوا بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى.

وَقَدْ أَنْكَرَ قَوْمٌ مِنَ الزَّائِغِينَ كَوْنَ المَلَائِكَةِ أَجْسَامًا، وَقَالُوا: إِنَّهُمْ عِبَارَةٌ عَنْ قُوَى الخَيْرِ الكَامِنَةِ فِي المَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا تَكْذِيبٌ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ.

قَال اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١].



وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، وَقَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

وَقَالَ فِي أَهْلِ الجَنَّةِ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ**»(١).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ المَسْجِدِ المَلَائِكَةُ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**»(٢).

وَهَذِهِ النُّصُوصُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ المَلَائِكَةَ أَجْسَامٌ لَا قِوَى مَعْنَوِيَّةٌ، كَمَا قَالَ الزَّائِغُونَ، وَعَلَى مُقْتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢١١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب فضل التهجير يوم الجمعة، رقم (٨٥٠).

وَكُتُبِهِ[١]، ....

[١] الكُتُبُ: جَمْعُ (كِتَابٍ) بِمَعْنَى (مَكْتُوبٍ).

وَالمُرَادُ بِهَا هُنَا: الكُتُبُ الَّتِي أَنْزَلَهَا تعَالَى عَلَى رُسُلِهِ رَحْمَةً لِلخَلْقِ، وَهِدَايَةً لَهُمْ؛ لِيَصِلُوا بِهَا إِلَى سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَالإِيمَانُ بِالكُتُبِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِأَنَّ نُزُولَهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ حَقًّا.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِمَا عَلِمْنَا اسْمَهُ مِنْهَا بِاسْمِهِ، كَالقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى ﷺ، وَالإِنْجِيلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى ﷺ، وَالزَّبُورِ الَّذِي أُوتِيَهُ دَاوُدَ ﷺ، وَأَمَّا مَا لَمْ نَعْلَمِ اسْمَهُ فَنُؤْمِنُ بِهِ إِجْمَالًا.

الثَّالِثُ: تَصْدِيقُ مَا صَحَّ مِنْ أَخْبَارِهَا، كَأَخْبَارِ القُرْآنِ، وَأَخْبَارِ مَا لَمْ يُبَدَّلْ أَوْ يُحَرَّفْ مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ.

الرَّابِعُ: العَمَلُ بِأَحْكَامِ مَا لَمْ يُنْسَخْ مِنْهَا، وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ بِهِ، سَوَاءٌ فَهِمْنَا حِكْمَتَهُ أَمْ لَمْ نَفْهَمْهَا، وَجَمِيعُ الكُتُبِ السَّابِقَةِ مَنْسُوخَةٌ بِالقُرْآنِ العَظِيمِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨] أَيْ: (حَاكِمًا عَلَيْهِ)، وَعَلَى هَذَا فَلَا يَجُوزُ العَمَلُ بِأَيِّ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ الكُتُبِ السَّابِقَةِ إِلَّا مَا صَحَّ مِنْهَا وَأَقَرَّهُ القُرْآنُ.

وَالإِيمَانُ بِالكُتُبِ يُثْمِرُ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً، مِنْهَا:

الأُولَى: العِلْمُ بِعِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ أَنْزَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ كِتَابًا يَهْدِيهِمْ بِهِ.



وَرُسُلِهِ[١]، ....

الثَّانِيَةُ: العِلْمُ بِحِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي شَرْعِهِ؛ حَيْثُ شَرَعَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَا يُنَاسِبُ أَحْوَالَهُمْ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

[١] الرُّسُلُ: جَمْعُ (رَسُولٍ) بِمَعْنَى (مُرْسَلٍ) أَيْ (مَبْعُوثٍ) بِإِبْلَاغِ شَيْءٍ.

وَالمُرَادُ هُنَا: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنَ البَشَرِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

وَأَوَّلُ الرُّسُلِ نُوحٌ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣].

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ «**أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ لِيَشْفَعَ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِمْ، وَيَقُولُ: ائْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ**» وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيثِ(١).

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وَلَمْ تَخْلُ أُمَّةٌ مِنْ رَسُولٍ يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ إِلَى قَوْمِهِ، أَوْ نَبِيٍّ يُوحِي إِلَيْهِ بِشَرِيعَةِ مَنْ قَبْلَهُ لِيُجَدِّدَهَا:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة:٤٤].

وَالرُّسُلُ بَشَرٌ مَخْلُوقُونَ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأُلُوهِيَّةِ شَيْءٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ وَأَعْظَمُهُمْ جَاهًا عِنْدَ اللهِ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف:١٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢].

وَتَلْحَقُهُمْ خَصَائِصُ البَشَرِيَّةِ مِنَ المَرَضِ، وَالمَوْتِ، وَالحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي وَصْفِهِ لِرَبِّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء:٧٩-٨١].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي»[1].

وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالعُبُودِيَّةِ لَهُ فِي أَعْلَى مَقَامَاتِهِمْ، وَفِي سِيَاقِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ: فَقَالَ تَعَالَى فِي نُوحٍ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وَقَالَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٥-٤٧].

وَقَالَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩].

وَالإِيمَانُ بِالرُّسُلِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِأَنَّ رِسَالَتَهُمْ حَقٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَمَنْ كَفَرَ بِرِسَالَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَقَدْ كَفَرَ بِالجَمِيعِ. كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] فَجَعَلَهُمُ اللهُ مُكَذِّبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَسُولٌ غَيْرُهُ حِينَ كَذَّبُوهُ، وَعَلَى هَذَا فَالنَّصَارَى الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ هُمْ مُكَذِّبُونَ لِلمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ، غَيْرُ مُتَّبِعِينَ لَهُ أَيْضًا، لَا سِيَّمَا وَأَنَّهُ قَدْ بَشَّرَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا مَعْنَى لِبِشَارَتِهِمْ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَيْهِمْ، يُنْقِذُهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِمَنْ عَلِمْنَا اسْمَهُ مِنْهُمْ بِاسْمِهِ، مِثْلُ: مُحَمَّدٍ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَنُوحٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَؤُلَاءِ الخَمْسَةُ هُمْ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ.

وَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي مَوْضِعَيْنِ مِنَ القُرْآنِ فِي سُورَةِ الأَحْزَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧].

وَفِي سُورَةِ الشُّورَى فِي قَوْلِهِ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وَأَمَّا مَنْ لَمْ نَعْلَمِ اسْمَهُ مِنْهُمْ فَنُؤْمِنُ بِهِ إِجْمَالًا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

الثَّالِثُ: تَصْدِيقُ مَا صَحَّ عَنْهُمْ مِنْ أَخْبَارِهِمْ.

الرَّابِعُ: العَمَلُ بِشَرِيعَةِ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ، وَهُوَ خَاتَمُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، المُرْسَلُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

وَلِلإِيمَانِ بِالرُّسُلِ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ، مِنْهَا:

الأُولَى: العِلْمُ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ؛ لِيَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ اللهِ تَعَالَى، وَيُبَيِّنُوا لَهُمْ كَيْفَ يَعْبُدُونَ اللهَ؛ لِأَنَّ العَقْلَ البَشَرِيَّ لَا يَسْتَقِلُّ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ.

الثَّانِيَةُ: شُكْرُهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الكُبْرَى.

الثَّالِثَةُ: مَحَبَّةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَعْظِيمُهُمْ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ تَعَالَى، وَلِأَنَّهُمْ قَامُوا بِعِبَادَتِهِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، وَالنُّصْحِ لِعِبَادِهِ.

وَقَدْ كَذَّبَ المُعَانِدُونَ رُسُلَهُمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ رُسُلَ اللهِ تَعَالَى لَا يَكُونُونَ مِنَ البَشَرِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الزَّعْمَ وَأَبْطَلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ

وَالْيَوْمِ الآخِرِ[١]، ....

إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤-٩٥].

فَأَبْطَلَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الزَّعْمَ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا؛ لِأَنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَهُمْ بَشَرٌ، وَلَوْ كَانَ أَهْلُ الأَرْضِ مَلَائِكَةً لَنَزَّلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكًا رَسُولًا؛ لِيَكُونَ مِثْلَهُمْ، وَهَكَذَا حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنِ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:١٠-١١].

[١] اليَوْمُ الآخِرُ: يَوْمُ القِيَامَةِ الَّذِي يُبْعَثُ النَّاسُ فِيهِ لِلحِسَابِ وَالجَزَاءِ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ؛ حَيْثُ يَسْتَقِرُّ أَهْلُ الجَنَّةِ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي مَنَازِلِهِمْ.

وَالإِيمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِالبَعْثِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ المَوْتَى حِينَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ، فَيَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، حُفَاةً غَيْرَ مُنْتَعِلِينَ، عُرَاةً غَيْرَ مُسْتَتِرِينَ، غُرْلًا غَيْرَ مُخْتَتَنِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وَالبَعْثُ: حَقٌّ ثَابِتٌ، دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ المُسْلِمِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً غُرْلًا»[1] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَأَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَى ثُبُوتِهِ، وَهُوَ مُقْتَضَى الحِكْمَةِ؛ حَيْثُ تَقْتَضِي أَنْ يَجْعَلَ اللهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الخَلِيقَةِ مَعَادًا، يُجَازِيهِمْ فِيهِ عَلَى مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِالحِسَابِ وَالجَزَاءِ: يُحَاسَبُ العَبْدُ عَلَى عَمَلِهِ، وَيُجَازَى عَلَيْهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ المُسْلِمِينَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

وَقَالَ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

وَقَالَ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَال: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.



الخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ»(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَأَنَّ مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»(٢).

وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِثْبَاتِ الحِسَابِ وَالجَزَاءِ عَلَى الأَعْمَالِ، وَهُوَ مُقْتَضَى الحِكْمَةِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الكُتُبَ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ، وَفَرَضَ عَلَى العِبَادِ قَبُولَ مَا جَاءُوا بِهِ، وَالعَمَلَ بِمَا يَجِبُ العَمَلُ بِهِ مِنْهُ، وَأَوْجَبَ قِتَالَ الْمُعَارِضِينَ لَهُ وَأَحَلَّ دِمَاءَهُمْ، وَذُرِّيَاتِهِمْ، وَنِسَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ.

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ حِسَابٌ وَلَا جَزَاءٌ لَكَانَ هَذَا مِنَ العَبَثِ الَّذِي يُنَزَّهُ الرَّبُّ الحَكِيمُ عَنْهُ، وَقَدْ أَشَارَ اللهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧].

الثَّالِثُ: الإِيمَانُ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّهُمَا الْمَآلُ الأَبَدِيُّ لِلخَلْقِ، فَالجَنَّةُ دَارُ النَّعِيمِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِلمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الإِيمَانَ بِهِ، وَقَامُوا بِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، مُخْلِصِينَ للهِ، مُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ، فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ «مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٧-٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

وَأَمَّا النَّارُ فَهِيَ دَارُ العَذَابِ، الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِلكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ العَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى البَالِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١].

وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف:٢٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٦].

وَيَلْتَحِقُ بِالإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ: الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ، مِثْلُ:

أ- فِتْنَةُ القَبْرِ: وَهِيَ سُؤَالُ المَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ عَنْ: رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ، فَيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ، فَيَقُولُ: «رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِي الإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ». وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ، فَيَقُولُ الكَافِرُ: «هَاهْ، هَاهَ، لَا أَدْرِي». وَيَقُولُ المُنَافِقُ أَوِ المُرْتَابُ: «لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ».

ب- عَذَابُ القَبْرِ وَنَعِيمُهُ: فَيَكُونُ العَذَابُ لِلظَّالِمِينَ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وَقَالَ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»**. ثُمَّ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: **«تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ»**. قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. فَقَالَ: **«تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ»**. قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ. قَال: **«تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»**. قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. قَالَ: **«تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ»**. قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ[1].

وَأَمَّا نَعِيمُ القَبْرِ فَلِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، رقم (٢٨٦٧).

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٩].

وَعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْمُؤْمِنِ إِذَا أَجَابَ الْمَلَكَيْنِ فِي قَبْرِهِ: «يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ[1].

وَلِلإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ مِنْهَا:

الأُولَى: الرَّغْبَةُ فِي فِعْلِ الطَّاعَةِ، وَالحِرْصُ عَلَيْهَا؛ رَجَاءً لِثَوَابِ ذَلِكَ اليَوْمِ.

الثَّانِيَةُ: الرَّهْبَةُ عِنْدَ فِعْلِ المَعْصِيَةِ، وَالرِّضَا بِهَا؛ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ ذَلِكَ اليَوْمِ.

الثَّالِثَةُ: تَسْلِيَةُ الْمُؤْمِنِ عَمَّا يَفُوتُهُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَرْجُوهُ مِنْ نَعِيمِ الآخِرَةِ وَثَوَابِهَا.

وَقَدْ أَنْكَرَ الكَافِرُونَ البَعْثَ بَعْدَ المَوْتِ، زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ.

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ، دَلَّ عَلَى بُطْلَانِهِ الشَّرْعُ وَالحِسُّ وَالعَقْلُ.

أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧] وَقَدِ اتَّفَقَتْ جَمِيعُ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الحِسُّ: فَقَدْ أَرَى اللهُ عِبَادَهُ إِحْيَاءَ المَوْتَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَفِي سُورَةِ البَقَرَةِ خَمْسَةُ أَمْثِلَةٍ عَلَى ذَلِكَ وَهِيَ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود : كتاب السنة، باب في المسألة في القبر، رقم (٤٧٥٣).

المِثَالُ الأَوَّلُ: قَوْمُ مُوسَى حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] فَأَمَاتَهُمُ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

المِثَالُ الثَّانِي فِي قِصَّةِ القَتِيلِ الَّذِي اخْتَصَمَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً، فَيَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا؛ لِيُخْبِرَهُمْ بِمَنْ قَتَلَهُ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٢-٧٣].

المِثَالُ الثَّالِثُ: فِي قِصَّةِ القَوْمِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنَ المَوْتِ، وَهُمْ أُلُوفٌ، فَأَمَاتَهُمُ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣].

المِثَالُ الرَّابِعُ: فِي قِصَّةِ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ مَيْتَةٍ، فَاسْتَبْعَدَ أَنْ يُحْيِيَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَمَاتَهُ اللهُ تَعَالَى مِئَةَ سَنَةٍ، ثُمَّ أَحْيَاهُ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

....

قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

المِثَالُ الخَامِسُ: فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ حِينَ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي المَوْتَى، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَذْبَحَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ، وَيُفَرِّقَهُنَّ أَجْزَاءً عَلَى الجِبَالِ الَّتِي حَوْلَهُ، ثُمَّ يُنَادِيَهُنَّ، فَتَلْتَئِمُ الأَجْزَاءُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَيَأْتِينَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ سَعْيًا.

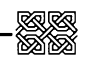
وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠].

فَهَذِهِ أَمْثِلَةٌ حِسِّيَّةٌ وَاقِعِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ إِحْيَاءِ المَوْتَى، وَقَدْ سَبَقَتِ الإِشَارَةُ إِلَى مَا جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ آيَاتِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مِنْ إِحْيَاءِ المَوْتَى وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا دَلَالَةُ العَقْلِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَى فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، خَالِقُهُمَا ابْتِدَاءً، وَالقَادِرُ عَلَى ابْتِدَاءِ الخَلْقِ لَا يَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].



....

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وَقَالَ آمِرًا بِالرَّدِّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إِحْيَاءَ العِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

الثَّانِي: أَنَّ الأَرْضَ تَكُونُ مَيْتَةً هَامِدَةً، لَيْسَ فِيهَا شَجَرَةٌ خَضْرَاءُ، فَيَنْزِلُ عَلَيْهَا المَطَرُ، فَتَهْتَزُّ خَضْرَاءَ حَيَّةً، فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وَالقَادِرُ عَلَى إِحْيَائِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الأَمْوَاتِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:٩-١١].

وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ فَأَنْكَرُوا عَذَابَ القَبْرِ وَنَعِيمَهُ، زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ؛ لِمُخَالَفَةِ الوَاقِعِ، قَالُوا: فَإِنَّهُ لَوْ كُشِفَ عَنِ المَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ، وَالقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسَعَةٍ وَلَا ضِيقٍ.

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ بِالشَّرْعِ وَالحِسِّ وَالعَقْلِ:

أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَدْ سَبَقَتِ النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى ثُبُوتِ عَذَابِ القَبْرِ وَنَعِيمِهِ فِي فَقْرَةِ (ب) مِمَّا يَلْتَحِقُ بِالإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ.

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ المَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا» وَذَكَرَ الحَدِيثَ، وَفِيهِ: «**أَنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ** -وَفِي رِوَايَةٍ: **مِنْ بَوْلِهِ**- **وَأَنَّ الآخَرَ كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»(١).

وَأَمَّا الحِسُّ: فَإِنَّ النَّائِمَ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ فَسِيحٍ بَهِيجٍ يَتَنَعَّمُ فِيهِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مُوحِشٍ يَتَأَلَّمُ مِنْهُ، وَرُبَّمَا يَسْتَيْقِظُ أَحْيَانًا مِمَّا رَأَى، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ فِي حُجْرَتِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَالنَّوْمُ أَخُو المَوْتِ؛ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى «وَفَاةً»، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٤٢].

وَأَمَّا العَقْلُ: فَإِنَّ النَّائِمَ فِي مَنَامِهِ يَرَى الرُّؤْيَا الحَقَّ المُطَابِقَةَ لِلوَاقِعِ، وَرُبَّمَا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ عَلَى صِفَتِهِ -وَمَنْ رَآهُ عَلَى صِفَتِهِ فَقَدْ رَآهُ حَقًّا- وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّائِمُ فِي حُجْرَتِهِ عَلَى فِرَاشِهِ بَعِيدًا عَمَّا رَأَى. فَإِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، أَفَلَا يَكُونُ مُمْكِنًا فِي أَحْوَالِ الآخِرَةِ؟!!

وَأَمَّا اعْتِمَادُهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ كُشِفَ عَنِ المَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ، وَالقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسَعَةٍ وَلَا ضِيقٍ، فَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ، مِنْهَا:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا تَجُوزُ مُعَارَضَةُ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ بِمِثْلِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الدَّاحِضَةِ الَّتِي لَوْ تَأَمَّلَ المُعَارِضُ بِهَا مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ حَقَّ التَّأَمُّلِ لَعَلِمَ بُطْلَانَ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر ألا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).



....

وَقَدْ قِيلَ[1]:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

الثَّانِي: أَنَّ أَحْوَالَ البَرْزَخِ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ، الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا الحِسُّ، وَلَوْ كَانَتْ تُدْرَكُ بِالحِسِّ لَفَاتَتْ فَائِدَةُ الإِيمَانِ بِالغَيْبِ، وَلَتَسَاوَى المُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَالجَاحِدُونَ فِي التَّصْدِيقِ بِهَا.

الثَّالِثُ: أَنَّ العَذَابَ وَالنَّعِيمَ وَسَعَةَ القَبْرِ وَضِيقَهُ إِنَّمَا يُدْرِكُهَا المَيِّتُ دُونَ غَيْرِهِ، وَهَذَا كَمَا يَرَى النَّائِمُ فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مُوحِشٍ، أَوْ فِي مَكَانٍ وَاسِعٍ بَهِيجٍ، وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ لِغَيْرِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ مَنَامُهُ، هُوَ فِي حُجْرَتِهِ، وَبَيْنَ فِرَاشِهِ وَغِطَائِهِ. وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُوحَى إِلَيْهِ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَيَسْمَعُ الوَحْيَ، وَلَا يَسْمَعُهُ الصَّحَابَةُ، وَرُبَّمَا يَتَمَثَّلُ لَهُ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُهُ[2]، وَالصَّحَابَةُ لَا يَرَوْنَ المَلَكَ وَلَا يَسْمَعُونَهُ.

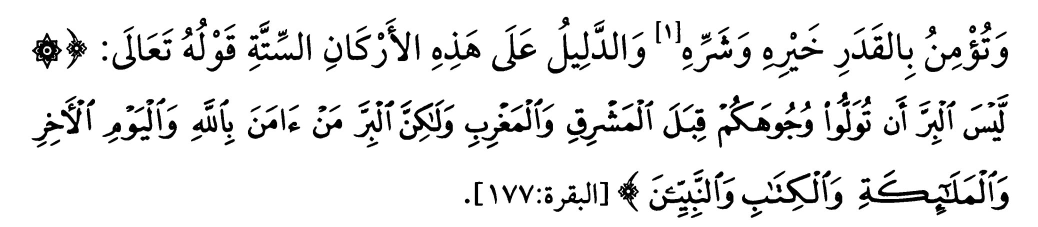
الرَّابِعُ: أَنَّ إِدْرَاكَ الخَلْقِ مَحْدُودٌ بِمَا مَكَّنَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ إِدْرَاكِهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُدْرِكُوا كُلَّ مَوْجُودٍ، فَالسَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ تَسْبِيحًا حَقِيقِيًّا يُسْمِعُهُ اللهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ أَحْيَانًا، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ مَحْجُوبٌ عَنَّا.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، رقم (٢٣٣٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.



وَتُؤْمِنُ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ[١] وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

وَدَلِيلُ القَدَرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وَهَكَذَا الشَّيَاطِينُ وَالجِنُّ يَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ ذَهَابًا وَإِيَابًا، وَقَدْ حَضَرَتِ الجِنُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَاسْتَمَعُوا لِقِرَاءَتِهِ وَأَنْصَتُوا، وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، وَمَعَ هَذَا فَهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنَّا.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧] وَإِذَا كَانَ الخَلْقُ لَا يُدْرِكُونَ كُلَّ مَوْجُودٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْكِرُوا مَا ثَبَتَ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ وَلَمْ يُدْرِكُوهُ.

[١] القَدَرُ بِفَتْحِ الدَّالِ: تَقْدِيرُ اللهِ تَعَالَى لِلكَائِنَاتِ، حَسْبَمَا سَبَقَ عِلْمُهُ، وَاقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ.

وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، أَزَلًا وَأَبَدًا، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِهِ أَوْ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ.

الثَّانِي: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ كَتَبَ ذَلِكَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وَفِي هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].



....

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ**»(١).

الثَّالِثُ: الإِيمَانُ بِأَنَّ جَمِيعَ الكَائِنَاتِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، سَوَاءٌ كَانَتْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِهِ أَمْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ المَخْلُوقِينَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِهِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

وَقَالَ: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وَقَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦].

وَقَالَ تَعَالَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ المَخْلُوقِينَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ [النساء:٩٠].

وَقَالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

الرَّابِعُ: الإِيمَانُ بِأَنَّ جَمِيعَ الكَائِنَاتِ مَخْلُوقَةٌ للهِ تَعَالَى بِذَوَاتِهَا، وَصِفَاتِهَا، وَحَرَكَاتِهَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢].

وَقَالَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

وَقَالَ عَنْ نَبِيِّ اللهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب ذكر حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣).

وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ عَلَى مَا وَصَفْنَا لَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةٌ فِي أَفْعَالِهِ الإِخْتِيَارِيَّةِ وَقُدْرَةٌ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ وَالوَاقِعَ دَالَّانِ عَلَى إِثْبَاتِ ذَلِكَ لَهُ.

أَمَّا الشَّرْعُ: فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي المَشِيئَةِ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٣٩]، وَقَالَ: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣].

وَقَالَ فِي القُدْرَةِ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن:١٦] وَقَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وَأَمَّا الوَاقِعُ: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ مَشِيئَةً وَقُدْرَةً بِهِمَا يَفْعَلُ وَبِهِمَا يَتْرُكُ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ مَا يَقَعُ بِإِرَادَتِهِ كَالمَشْيِ وَمَا يَقَعُ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ كَالِارْتِعَاشِ، لَكِنْ مَشِيئَةُ العَبْدِ وَقُدْرَتُهُ وَاقِعَتَانِ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] وَلِأَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ مِلْكٌ للهِ تَعَالَى، فَلَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ شَيْءٌ بِدُونِ عِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ عَلَى مَا وَصَفْنَا لَا يَمْنَحُ العَبْدَ حُجَّةً عَلَى مَا تَرَكَ مِنَ الوَاجِبَاتِ أَوْ فَعَلَ مِنَ المَعَاصِي، وَعَلَى هَذَا فَاحْتِجَاجُهُ بِهِ بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ:

الأَوَّلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨] وَلَوْ كَانَ لَهُمْ حُجَّةٌ بِالقَدَرِ مَا أَذَاقَهُمُ اللهُ بَأْسَهُ.

الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ

بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٦٥] وَلَوْ كَانَ القَدَرُ حُجَّةً لِلْمُخَالِفِينَ لَمْ تَنْتَفِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الْمُخَالَفَةَ بَعْدَ إِرْسَالِهِمْ وَاقِعَةٌ بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَى.

الثَّالِثُ: مَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ -وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ- عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوِ مِنَ الجَنَّةِ**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَلَا نَتَّكِلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآيَةَ[1]، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «**فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالعَمَلِ، وَنَهَى عَنِ الِاتِّكَالِ عَلَى القَدَرِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ العَبْدَ وَنَهَاهُ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُ إِلَّا مَا يَسْتَطِيعُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦]، وَقَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وَلَوْ كَانَ العَبْدُ مُجْبَرًا عَلَى الفِعْلِ لَكَانَ مُكَلَّفًا بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ الخَلَاصَ مِنْهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ وَلِذَلِكَ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ المَعْصِيَةُ بِجَهْلٍ، أَوْ نِسْيَانٍ، أَوْ إِكْرَاهٍ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَعْذُورٌ.

الخَامِسُ: أَنَّ قَدَرَ اللهِ تَعَالَى سِرٌّ مَكْتُومٌ، لَا يُعْلَمُ بِهِ إِلَّا بَعْدَ وُقُوعِ المَقْدُورِ، وَإِرَادَةُ العَبْدِ لِمَا يَفْعَلُهُ سَابِقَةٌ عَلَى فِعْلِهِ، فَتَكُونُ إِرَادَتُهُ الفِعْلَ غَيْرَ مَبْنِيَّةٍ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِقَدَرِ اللهِ، وَحِينَئِذٍ تَنْتَفِي حُجَّتُهُ بِالقَدَرِ؛ إِذْ لَا حُجَّةَ لِلْمَرْءِ فِيمَا لَا يَعْلَمُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، وأخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السَّادِسُ: أَنَّنَا نَرَى الإِنْسَانَ يَحْرِصُ عَلَى مَا يُلَائِمُهُ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ، وَلَا يَعْدِلُ عَنْهُ إِلَى مَا لَا يُلَائِمُهُ، ثُمَّ يَحْتَجُّ عَلَى عُدُولِهِ بِالقَدَرِ، فَلِمَاذَا يَعْدِلُ عَمَّا يَنْفَعُهُ فِي أُمُورِ دِينِهِ إِلَى مَا يَضُرُّهُ ثُمَّ يَحْتَجُّ بِالقَدَرِ؟! أَفَلَيْسَ شَأْنُ الأَمْرَيْنِ وَاحِدًا؟!

وَإِلَيْكَ مِثَالٌ يُوَضِّحُ ذَلِكَ: لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيِ الإِنْسَانِ طَرِيقَانِ، أَحَدُهُمَا يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدٍ كُلُّهَا فَوْضَى، وَقَتْلٌ، وَنَهْبٌ، وَانْتِهَاكٌ لِلأَعْرَاضِ، وَخَوْفٌ، وَجُوعٌ. وَالثَّانِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدٍ كُلُّهَا نِظَامٌ، وَأَمْنٌ مُسْتَتِبٌّ، وَعَيْشٌ رَغِيدٌ، وَاحْتِرَامٌ لِلنُّفُوسِ وَالأَعْرَاضِ وَالأَمْوَالِ. فَأَيَّ الطَّرِيقَيْنِ يَسْلُكُ؟ إِنَّهُ سَيَسْلُكُ الطَّرِيقَ الثَّانِيَ الَّذِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدِ النِّظَامِ وَالأَمْنِ، وَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ عَاقِلٍ أَبَدًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ بَلَدِ الفَوْضَى وَالخَوْفِ، وَيَحْتَجُّ بِالقَدَرِ، فَلِمَاذَا يَسْلُكُ فِي أَمْرِ الآخِرَةِ طَرِيقَ النَّارِ دُونَ الجَنَّةِ وَيَحْتَجُّ بِالقَدَرِ؟!!

مِثَالٌ آخَرُ: نَرَى المَرِيضَ يُؤْمَرُ بِالدَّوَاءِ فَيَشْرَبُهُ وَنَفْسُهُ لَا تَشْتَهِيهِ، وَيُنْهَى عَنِ الطَّعَامِ الَّذِي يَضُرُّهُ فَيَتْرُكُهُ وَنَفْسُهُ تَشْتَهِيهِ، كُلُّ ذَلِكَ طَلَبًا لِلشِّفَاءِ وَالسَّلَامَةِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْ شُرْبِ الدَّوَاءِ أَوْ يَأْكُلَ الطَّعَامَ الَّذِي يَضُرُّهُ وَيَحْتَجُّ بِالقَدَرِ. فَلِمَاذَا يَتْرُكُ الإِنْسَانُ مَا أَمَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ يَفْعَلُ مَا نَهَى اللهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَحْتَجُّ بِالقَدَرِ؟

السَّابِعُ: أَنَّ المُحْتَجَّ بِالقَدَرِ عَلَى مَا تَرَكَهُ مِنَ الوَاجِبَاتِ أَوْ فَعَلَهُ مِنَ المَعَاصِي، لَوِ اعْتَدَى عَلَيْهِ شَخْصٌ فَأَخَذَ مَالَهُ، أَوِ انْتَهَكَ حُرْمَتَهُ، ثُمَّ احْتَجَّ بِالقَدَرِ، وَقَالَ: لَا تَلُمْنِي فَإِنَّ اعْتِدَائِي كَانَ بِقَدَرِ اللهِ، لَمْ يَقْبَلْ حُجَّتَهُ. فَكَيْفَ لَا يَقْبَلُ الِاحْتِجَاجَ بِالقَدَرِ فِي اعْتِدَاءِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ، وَيَحْتَجُّ بِهِ لِنَفْسِهِ فِي اعْتِدَائِهِ عَلَى حَقِّ اللهِ تَعَالَى؟!!

وَيُذْكَرُ أَنَّ -أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ- عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِعَ إِلَيْهِ سَارِقٌ اسْتَحَقَّ القَطْعَ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِ فَقَالَ: مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّمَا سَرَقْتُ بِقَدَرِ اللهِ. فَقَالَ: وَنَحْنُ إِنَّمَا نَقْطَعُ بِقَدَرِ اللهِ.

وَلِلإِيمَانِ بِالقَدَرِ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ، مِنْهَا:

الأُولَى: الاِعْتِمَادُ عَلَى اللهِ تَعَالَى عِنْدَ فِعْلِ الأَسْبَابِ، بِحَيْثُ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى السَّبَبِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَى.

الثَّانِيَةُ: أَنْ لَا يُعْجِبَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ عِنْدَ حُصُولِ مُرَادِهِ؛ لِأَنَّ حُصُولَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، بِمَا قَدَّرَهُ مِنْ أَسْبَابِ الخَيْرِ وَالنَّجَاحِ، وَإِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ يُنْسِيهِ شُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ.

الثَّالِثَةُ: الطُّمَأْنِينَةُ، وَالرَّاحَةُ النَّفْسِيَّةُ بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ أَقْدَارِ اللهِ تَعَالَى، فَلَا يَقْلَقُ بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَدْ ضَلَّ فِي القَدَرِ طَائِفَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: الجَبْرِيَّةُ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ العَبْدَ مُجْبَرٌ عَلَى عَمَلِهِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ إِرَادَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ.

الثَّانِيَةُ: القَدَرِيَّةُ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ العَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ فِي الإِرَادَةِ وَالقُدْرَةِ، وَلَيْسَ لِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ فِيهِ أَثَرٌ.

وَالرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَةِ الأُولَى (الجَبْرِيَّةِ) بِالشَّرْعِ وَالوَاقِعِ:

أَمَّا الشَّرْعُ: فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِلعَبْدِ إِرَادَةً وَمَشِيئَةً، وَأَضَافَ العَمَلَ إِلَيْهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩] الآيَةَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

وَأَمَّا الوَاقِعُ: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ الفَرْقَ بَيْنَ أَفْعَالِهِ الاِخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي يَفْعَلُهَا بِإِرَادَتِهِ كَالأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَبَيْنَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ كَالاِرْتِعَاشِ مِنَ الحُمَّى، وَالسُّقُوطِ مِنَ السَّطْحِ، فَهُوَ فِي الأَوَّلِ فَاعِلٌ مُخْتَارٌ بِإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ جَبْرٍ، وَفِي الثَّانِي غَيْرُ مُخْتَارٍ وَلَا مُرِيدٍ لِمَا وَقَعَ عَلَيْهِ.



الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ، رُكْنٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [سورة يونس:٦١] [١].

وَالرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ (القَدَرِيَّةِ) بِالشَّرْعِ وَالعَقْلِ:

أَمَّا الشَّرْعُ: فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ كَائِنٌ بِمَشِيئَتِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنَّ أَفْعَالَ العِبَادِ تَقَعُ بِمَشِيئَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣].

وَأَمَّا العَقْلُ: فَإِنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ مَمْلُوكٌ للهِ تَعَالَى، وَالإِنْسَانُ مِنْ هَذَا الكَوْنِ، فَهُوَ مَمْلُوكٌ للهِ تَعَالَى، وَلَا يُمْكِنُ لِلْمَمْلُوكِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مُلْكِ المَالِكِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

[١] الإِحْسَانُ ضِدُّ الإِسَاءَةِ، وَهُوَ أَنْ يَبْذُلَ الإِنْسَانُ المَعْرُوفَ وَيَكُفَّ الأَذَى، فَيَبْذُلُ المَعْرُوفَ لِعِبَادِ اللهِ فِي مَالِهِ، وَجَاهِهِ، وَعِلْمِهِ، وَبَدَنِهِ.

فَأَمَّا المَالُ فَأَنْ يُنْفِقَ وَيَتَصَدَّقَ وَيُزَكِّيَ، وَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ الإِحْسَانِ بِالمَالِ الزَّكَاةُ؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ أَحَدُ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ وَمَبَانِيهِ العِظَامِ، وَلَا يَتِمُّ إِسْلَامُ المَرْءِ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ أَحَبُّ

النَّفَقَاتِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَلِي ذَلِكَ مَا يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مِنْ نَفَقَةٍ لِزَوْجَتِهِ، وَأُمِّهِ، وَأَبِيهِ، وَذُرِّيَّتِهِ، وَإِخْوَانِهِ، وَبَنِي إِخْوَتِهِ، وَأَخَوَاتِهِ، وَأَعْمَامِهِ، وَعَمَّاتِهِ، وَخَالَاتِهِ، إِلَى آخِرِ هَذَا، ثُمَّ الصَّدَقَةُ عَلَى المَسَاكِينِ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ هُمْ أَهْلٌ لِلصَّدَقَةِ، كَطُلَّابِ العِلْمِ مَثَلًا.

وَأَمَّا بَذْلُ المَعْرُوفِ فِي الجَاهِ فَهُوَ أَنَّ النَّاسَ مَرَاتِبُ، مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ ذَوِي السُّلْطَانِ، فَيَبْذُلُ الإِنْسَانُ جَاهَهُ، يَأْتِيهِ رَجُلٌ فَيَطْلُبُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ إِلَى ذِي السُّلْطَانِ يَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ؛ إِمَّا بِدَفْعِ ضَرَرٍ عَنْهُ، أَوْ بِجَلْبِ خَيْرٍ لَهُ.

وَأَمَّا بِعِلْمِهِ فَأَنْ يَبْذُلَ عِلْمَهُ لِعِبَادِ اللهِ، تَعْلِيمًا فِي الحَلْقَاتِ وَالمَجَالِسِ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، حَتَّى لَوْ كُنْتَ فِي مَجْلِسِ قَهْوَةٍ، فَإِنَّ مِنَ الخَيْرِ وَالإِحْسَانِ أَنْ تُعَلِّمَ النَّاسَ، وَلَوْ كُنْتَ فِي مَجْلِسٍ عَامٍّ فَمِنَ الخَيْرِ أَنْ تُعَلِّمَ النَّاسَ، وَلَكِنِ اسْتَعْمِلِ الحِكْمَةَ فِي هَذَا البَابِ، فَلَا تُثْقِلْ عَلَى النَّاسِ حَيْثُ كُلَّمَا جَلَسْتَ فِي مَجْلِسٍ جَعَلْتَ تَعِظُهُمْ وَتَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالمَوْعِظَةِ[1] وَلَا يُكْثِرُ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ تَسْأَمُ وَتَمَلُّ، فَإِذَا مَلَّتْ كَلَّتْ وَضَعُفَتْ، وَرُبَّمَا تَكْرَهُ الخَيْرَ؛ لِكَثْرَةِ مَنْ يَقُومُ وَيَتَكَلَّمُ.

وَأَمَّا الإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ بِالبَدَنِ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ**»[2] فَهَذَا رَجُلٌ تُعِينُهُ تَحْمِلُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم، رقم (٦٨)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب الاقتصاد في الموعظة، رقم (٢٨٢١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم (٢٨٩١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



مَتَاعَهُ مَعَهُ، أَوْ تَدُلُّهُ عَلَى طَرِيقٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِك، فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الإِحْسَانِ. هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِ اللهِ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ اللهِ: فَأَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهَذِهِ العِبَادَةُ -أَيْ عِبَادَةُ الإِنْسَانِ رَبَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ- عِبَادَةُ طَلَبٍ وَشَوْقٍ، وَعِبَادَةُ الطَّلَبِ وَالشَّوْقِ يَجِدُ الإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ حَاثًّا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُ هَذَا الَّذِي يُحِبُّهُ، فَهُوَ يَعْبُدُهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَيَقْصِدُهُ، وَيُنِيبُ إِلَيْهِ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» وَهَذِهِ عِبَادَةُ الهَرَبِ وَالخَوْفِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ المَرْتَبَةُ ثَانِيَةً فِي الإِحْسَانِ، إِذَا لَمْ تَكُنْ تَعْبُدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَتَطْلُبُهُ، وَتَحُثُّ النَّفْسَ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ فَاعْبُدْهُ كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرَاكَ، فَتَعْبُدُهُ عِبَادَةَ خَائِفٍ مِنْهُ، هَارِبٍ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ عِنْدَ أَرْبَابِ السُّلُوكِ أَدْنَى مِنَ الدَّرَجَةِ الأُولَى.

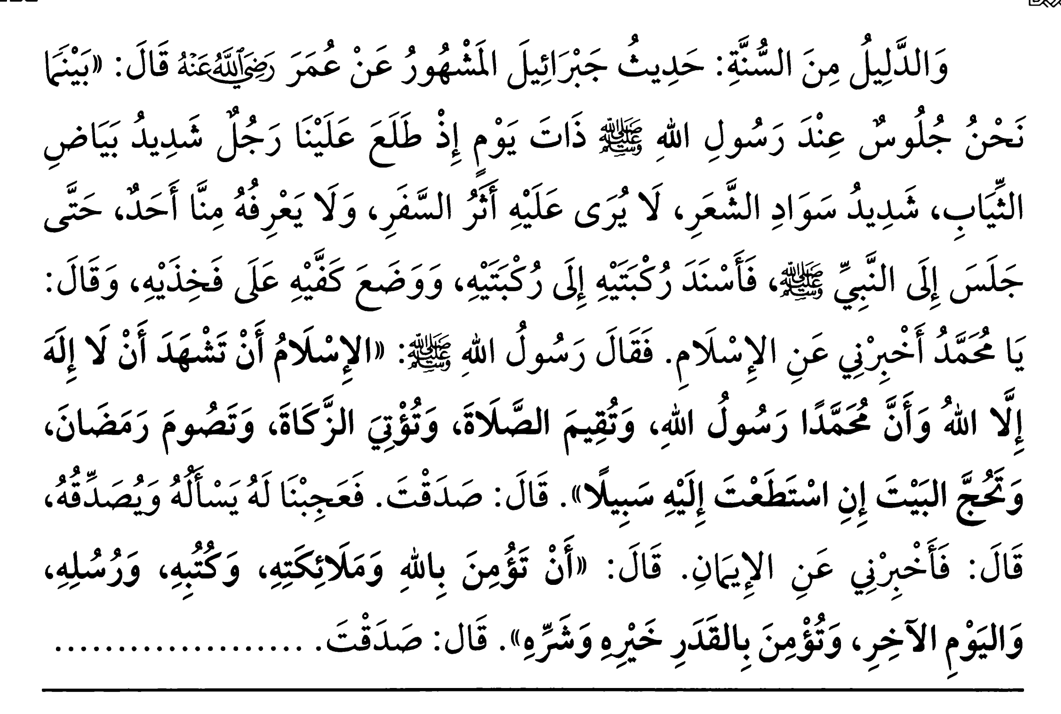
وَعِبَادَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هِيَ كَمَا قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

فَالعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ: غَايَةِ الحُبِّ، وَغَايَةِ الذُّلِّ؛ فَفِي الحُبِّ الطَّلَبُ، وَفِي الذُّلِّ الخَوْفُ وَالهَرَبُ، فَهَذَا هُوَ الإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى هَذَا الوَجْهِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ مُخْلِصًا للهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُرِيدُ بِعِبَادَتِهِ رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، وَلَا مَدْحًا عِنْدَ النَّاسِ، وَسَوَاءٌ اطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ أَمْ لَمْ يَطَّلِعُوا، الكُلُّ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، وَهُوَ مُحْسِنُ العِبَادَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

(١) انظر: شرح الكافية الشافية -نونية ابن القيم- لفضيلة الشيخ الشارح رحمه الله تعالى (١/ ٣٦٥).



وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرَائِيلَ المَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**. قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**. قَالَ: صَدَقْتَ. ....

بَلْ إِنَّ مِنْ تَمَامِ الإِخْلَاصِ أَنْ يَحْرِصَ الإِنْسَانُ عَلَى أَلَّا يَرَاهُ النَّاسُ فِي عِبَادَتِهِ، وَأَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُ مَعَ رَبِّهِ سِرًّا، إِلَّا إِذَا كَانَ فِي إِعْلَانِ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ لِلإِسْلَامِ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا مَتْبُوعًا يُقْتَدَى بِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ يُبَيِّنَ عِبَادَتَهُ لِلنَّاسِ؛ لِيَأْخُذُوا مِنْ ذَلِكَ نِبْرَاسًا يَسِيرُونَ عَلَيْهِ، أَوْ كَانَ هُوَ يُحِبُّ أَنْ يُظْهِرَ العِبَادَةَ؛ لِيَقْتَدِيَ بِهَا زُمَلَاؤُهُ وَقُرَنَاؤُهُ وَأَصْحَابُهُ، فَفِي هَذَا خَيْرٌ.

وَهَذِهِ المَصْلَحَةُ الَّتِي يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا قَدْ تَكُونُ أَفْضَلَ وَأَعْلَى مِنْ مَصْلَحَةِ الإِخْفَاءِ؛ لِهَذَا يُثْنِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فَإِذَا كَانَ السِّرُّ أَصْلَحَ وَأَنْفَعَ لِلقَلْبِ وَأَخْشَعَ وَأَشَدَّ إِنَابَةً إِلَى اللهِ أَسَرُّوا، وَإِذَا كَانَ فِي الإِعْلَانِ مَصْلَحَةٌ لِلْإِسْلَامِ بِظُهُورِ شَرَائِعِهِ، وَلِلْمُسْلِمِينَ يَقْتَدُونَ بِهَذَا الفَاعِلِ وَهَذَا العَامِلِ -أَعْلَنُوهُ.

وَالمُؤْمِنُ يَنْظُرُ مَا هُوَ الأَصْلَحُ، كُلَّمَا كَانَ أَصْلَحَ وَأَنْفَعَ فِي العِبَادَةِ فَهُوَ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ.



قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ». قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا فَقَالَ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»[١].

---

[١] رَوَاهُ مُسْلِمٌ، كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ، وَغَالِبُ هَذَا الحَدِيثِ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ، وَلَنَا شَرْحٌ عَلَيْهِ فِي مَجْمُوعِ الفَتَاوَى وَالرَّسَائِلِ (٣/ ١٤٣).





الأَصْلُ الثَّالِثُ[١]:

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَلَهُ مِنَ العُمُرِ: ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، نُبِّئَ بِاقْرَأْ، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

---

[١] أَيْ: مِنَ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا، وَهِيَ مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ.

وَقَدْ سَبَقَ الكَلَامُ عَلَى مَعْرِفَةِ العَبْدِ رَبَّهُ وَدِينَهُ.

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَتَتَضَمَّنُ خَمْسَةَ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: مَعْرِفَتُهُ نَسَبًا، فَهُوَ أَشْرَفُ النَّاسِ نَسَبًا، فَهُوَ هَاشِمِيٌّ قُرَشِيٌّ عَرَبِيٌّ، فَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، إِلَى آخِرِ مَا قَالَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

الثَّانِي: مَعْرِفَةُ سِنِّهِ، وَمَكَانِ وِلَادَتِهِ، وَمُهَاجَرِهِ، وَقَدْ بَيَّنَهَا الشَّيْخُ بِقَوْلِهِ: «وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً»، «وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ» فَقَدْ وُلِدَ بِمَكَّةَ وَبَقِيَ فِيهَا ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ سَنَةً، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَبَقِيَ فِيهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ فِيهَا فِي رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ بَعْدَ الهِجْرَةِ.

الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ حَيَاتِهِ النَّبَوِيَّةِ، وَهِيَ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَلَهُ

أَرْبَعُونَ سَنَةً، كَمَا قَالَ أَحَدُ شُعَرَائِهِ(١):

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ ... شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانَ

الرَّابِعُ: بِمَاذَا كَانَ نَبِيًّا وَرَسُولًا؟

فَقَدْ كَانَ نَبِيًّا حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥] ثُمَّ كَانَ رَسُولًا حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:١-٧].

فَقَامَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَأَنْذَرَ وَقَامَ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالفَرْقُ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ العِلْمِ: أَنَّ النَّبِيَّ هُوَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ، وَالرَّسُولَ مَنْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ وَالعَمَلِ بِهِ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا.

الخَامِسُ: بِمَاذَا أُرْسِلَ وَلِمَاذَا؟

فَقَدْ أُرْسِلَ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَشَرِيعَتِهِ المُتَضَمِّنَةِ لِفِعْلِ المَأْمُورِ وَتَرْكِ المَحْظُورِ، وَأُرْسِلَ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ؛ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُلْمَةِ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ وَالجَهْلِ إِلَى نُورِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ؛ حَتَّى يَنَالُوا بِذَلِكَ مَغْفِرَةَ اللهِ وَرِضْوَانَهُ، وَيَنْجُوا مِنْ عِقَابِهِ وَسُخْطِهِ.

---

(١) البيت ليحيى الصرصري في نونيته (معارج الأنوار في سيرة النبي المختار)، انظر: زاد المعاد (١/ ٧٧).

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ[١] وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)[٢] قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)[٣] وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:١-٧].

وَمَعْنَى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ[١] وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ[٢] ....

---

[١] أَيْ: يُنْذِرُهُمْ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

[٢] النِّدَاءُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣] يَأْمُرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُومَ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ، وَيُنْذِرَ النَّاسَ عَنِ الشِّرْكِ، وَيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ، وَقَدْ فَسَّرَ الشَّيْخُ هَذِهِ الآيَاتِ.

[١] أَيْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَقِيَ عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٢] العُرُوجُ الصُّعُودُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] وَهُوَ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ العَظِيمَةِ، الَّتِي فَضَّلَهُ اللهُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ مِنْ مَكَّةَ.

فَبَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ فِي الحِجْرِ فِي الكَعْبَةِ أَتَاهُ آتٍ، فَشَقَّ مَا بَيْنَ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَ قَلْبَهُ، فَمَلَأَهُ حِكْمَةً وَإِيمَانًا؛ تَهْيِئَةً لِمَا سَيَقُومُ بِهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِدَابَّةٍ بَيْضَاءَ

دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ، يُقَالُ لَهَا: البُرَاقُ، يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، فَرَكِبَهُ ﷺ وَبِصُحْبَتِهِ جِبْرِيلُ الأَمِينُ، حَتَّى وَصَلَ بَيْتَ المَقْدِسِ، فَنَزَلَ هُنَاكَ وَصَلَّى بِالأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، بِكُلِّ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، يُصَلُّونَ خَلْفَهُ؛ لِيَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ فَضْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَرَفُهُ، وَأَنَّهُ الإِمَامُ المَتْبُوعُ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ. فَفُتِحَ لَهُ، فَوَجَدَ فِيهَا آدَمَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. وَإِذَا عَلَى يَمِينِ آدَمَ أَرْوَاحُ السُّعَدَاءِ وَعَلَى يَسَارِهِ أَرْوَاحُ الأَشْقِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى اليَمِينِ سُرَّ وَضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبِيلَ شِمَالِهِ بَكَى.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إِلَخْ. فَوَجَدَ فِيهَا يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ابْنُ خَالَةِ الآخَرِ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَانِ يَحْيَى وَعِيسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا. فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، فَرَدَّا السَّلَامَ، وَقَالَا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إِلَخْ. فَوَجَدَ فِيهَا يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا يُوسُفُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إِلَخْ، فَوَجَدَ فِيهَا إِدْرِيسَ ﷺ،

فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا إِدْرِيسُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إِلَخْ. فَوَجَدَ فِيهَا هَارُونَ بْنَ عِمْرَانَ أَخَا مُوسَى ﷺ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا هَارُونُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إِلَخْ. فَوَجَدَ فِيهَا مُوسَى ﷺ فَقَالَ، جِبْرِيلُ هَذَا مُوسَى، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. فَلَمَّا تَجَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: «**أَبْكِي؛ لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي**» فَكَانَ بُكَاءُ مُوسَى حُزْنًا عَلَى مَا فَاتَ أُمَّتَهُ مِنَ الفَضَائِلِ، لَا حَسَدًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ... إِلَخْ. فَوَجَدَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ ﷺ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

وَإِنَّمَا طَافَ جِبْرِيلُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى هَؤُلَاءِ الأَنْبِيَاءِ؛ تَكْرِيمًا لَهُ، وَإِظْهَارًا لِشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى البَيْتِ المَعْمُورِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، الَّذِي يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ المَلَائِكَةِ، يَتَعَبَّدُونَ وَيُصَلُّونَ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ وَلَا يَعُودُونَ، فِي اليَوْمِ الثَّانِي يَأْتِي غَيْرُهُمْ مِنَ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ.

وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ[١]، ....

ثُمَّ رُفِعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مِنَ البَهَاءِ وَالحُسْنِ مَا غَشِيَهَا، حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا، ثُمَّ فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ، خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَرَضِيَ بِذَلِكَ، وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَزَلَ، فَلَمَّا مَرَّ بِمُوسَى قَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ. فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِك، وَقَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، وَمَا زَالَ يُرَاجِعُ رَبَّهُ حَتَّى اسْتَقَرَّتِ الفَرِيضَةُ عَلَى خَمْسٍ، فَنَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَلَى عِبَادِي.

وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أُدْخِلَ النَّبِيُّ ﷺ الجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ، ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ بِغَلَسٍ، وَصَلَّى فِيهَا الصُّبْحَ(١).

[١] وَكَانَ يُصَلِّي الرُّبَاعِيَّةَ رَكْعَتَيْنِ، حَتَّى هَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الحَضَرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رقم (١٦٤)، من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام، رقم (٣٣٤٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٣)، من حديث أنس عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ[٢] إِلَى المَدِينَةِ، ....

---

[٢] أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ مَنَعُوهُ أَنْ يُقِيمَ دَعْوَتَهُ، وَفِي شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ مِنَ العَامِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنَ البَعْثَةِ وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ مُهَاجِرًا مِنْ مَكَّةَ البَلَدِ الأَوَّلِ لِلوَحْيِ، وَأَحَبِّ البِلَادِ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا بِإِذْنِ رَبِّهِ بَعْدَ أَنْ قَامَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَيَدْعُو إِلَيْهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ وَأَكَابِرِهِمْ سِوَى الرَّفْضِ لِدَعْوَتِهِ، وَالإِعْرَاضِ عَنْهَا، وَالإِيذَاءِ الشَّدِيدِ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَمَنْ آمَنَ بِهِ.

حَتَّى آلَ الأَمْرُ بِهِمْ إِلَى تَنْفِيذِ خُطَّةِ المَكْرِ وَالخِدَاعِ لِقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ؛ حَيْثُ اجْتَمَعَ كُبَرَاؤُهُمْ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَتَشَاوَرُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْا أَصْحَابَهُ يُهَاجِرُونَ إِلَى المَدِينَةِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ، وَيَجِدَ النُّصْرَةَ وَالعَوْنَ مِنَ الأَنْصَارِ الَّذِينَ بَايَعُوهُ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ لَهُ الدَّوْلَةُ عَلَى قُرَيْشٍ.

فَقَالَ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ: الرَّأْيُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًّا جَلْدًا، ثُمَّ نُعْطِيَ كُلَّ وَاحِدٍ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَعْمِدُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَضْرِبُوهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَقْتُلُوهُ وَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ، فَيَتَفَرَّقَ دَمُهُ فِي القَبَائِلِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ -يَعْنِي عَشِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ- أَنْ يُحَارِبُوا قَوْمَهُمْ جَمِيعًا، فَيَرْضَوْنَ بِالدِّيَةِ، فَنُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا.

فَأَعْلَمَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِمَا أَرَادَ المُشْرِكُونَ، وَأَذِنَ لَهُ بِالهِجْرَةِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ تَجَهَّزَ مِنْ قَبْلُ لِلهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي»**، فَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَصْحَبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



....

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فِي مُنْتَصَفِ النَّهَارِ إِذَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى البَابِ مُتَقَنِّعًا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي! وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ. فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**». فَقَالَ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ**». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ فَخُذْ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بِالثَّمَنِ**». ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ، فَأَقَامَا فِي غَارِ جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ -وَكَانَ غُلَامًا شَابًّا ذَكِيًّا وَاعِيًا- فَيَنْطَلِقُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى مَكَّةَ، فَيُصْبِحُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَا يَسْمَعُ بِخَبَرٍ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ إِلَيْهِمَا حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ[(١)].

فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَطْلُبُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَتَسْعَى بِكُلِّ وَسِيلَةٍ؛ لِيُدْرِكُوا النَّبِيَّ ﷺ، حَتَّى جَعَلُوا لِمَنْ يَأْتِي بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا دِيَتَهُ مِئَةً مِنَ الإِبِلِ[(٢)]، وَلَكِنَّ اللهَ كَانَ مَعَهُمَا، يَحْفَظُهُمَا بِعِنَايَتِهِ، وَيَرْعَاهُمَا بِرِعَايَتِهِ، حَتَّى إِنَّ قُرَيْشًا لَيَقِفُونَ عَلَى بَابِ الغَارِ فَلَا يَرَوْنَهُمَا.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِي الغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا. فَقَالَ: «**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، رقم (٣٩٠٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، رقم (٣٩٠٦)، من حديث سراقة بن جعشم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٦٥٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

حَتَّى إِذَا سَكَنَ الطَّلَبُ عَنْهُمَا قَلِيلًا خَرَجَا مِنَ الغَارِ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، مُتَّجِهِينَ إِلَى المَدِينَةِ عَلَى طَرِيقِ السَّاحِلِ.

وَلَمَّا سَمِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ إِلَى الحَرَّةِ، يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبِهِ، حَتَّى يَطْرُدَهُمْ حَرُّ الشَّمْسِ.

فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَعَالَى النَّهَارُ، وَاشْتَدَّ الحَرُّ، رَجَعُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَإِذَا رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ يَنْظُرُ لِحَاجَةٍ لَهُ، فَأَبْصَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مُقْبِلِينَ، يَزُولُ بِهِمَا السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكْ أَنْ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ العَرَبِ! هَذَا جَدُّكُمْ -يَعْنِي: هَذَا حَظُّكُمْ وَعِزُّكُمْ- الَّذِي تَنْتَظِرُونَ.

فَهَبَّ المُسْلِمُونَ لِلِقَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَعَهُمُ السِّلَاحُ؛ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِيذَانًا بِاسْتِعْدَادِهِمْ لِلجِهَادِ وَالدِّفَاعِ دُونَهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَتَلَقَّوْهُ ﷺ بِظَاهِرِ الحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ، وَنَزَلَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ فِي قُبَاءٍ، وَأَقَامَ فِيهِمْ بِضْعَ لَيَالٍ، وَأَسَّسَ المَسْجِدَ.

ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى المَدِينَةِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، وَآخَرُونَ يَتَلَقَّوْنَهُ فِي الطُّرُقَاتِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَرَجَ النَّاسُ حِينَ قَدِمْنَا المَدِينَةَ فِي الطُّرُقِ وَعَلَى البُيُوتِ، وَالغِلْمَانُ وَالخَدَمُ يَقُولُونَ: اللهُ أَكْبَرُ، جَاءَ رَسُولُ اللهِ، اللهُ أَكْبَرُ، جَاءَ مُحَمَّدٌ[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة، رقم (٢٠٠٩/ ٧٥)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وانظر سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٢).

وَالهِجْرَةُ: الِانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ[١].

وَالهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ[١]، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[٢] [النساء:٩٧-٩٩].................................

---

[١] الهِجْرَةُ فِي اللُّغَةِ: «مَأْخُوذَةٌ مِنَ الهَجْرِ وَهُوَ التَّرْكُ».

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَهِيَ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ: «الِانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ». وَبَلَدُ الشِّرْكِ هُوَ الَّذِي تُقَامُ فِيهَا شَعَائِرُ الكُفْرِ وَلَا تُقَامُ فِيهِ شَعَائِرُ الإِسْلَامِ كَالأَذَانِ، وَالصَّلَاةِ جَمَاعَةً، وَالأَعْيَادِ، وَالجُمُعَةِ عَلَى وَجْهٍ عَامٍّ شَامِلٍ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: «عَلَى وَجْهٍ عَامٍّ شَامِلٍ» لِيَخْرُجَ مَا تُقَامُ فِيهِ هَذِهِ الشَّعَائِرِ عَلَى وَجْهٍ مَحْصُورٍ كَبِلَادِ الكُفَّارِ الَّتِي فِيهَا أَقَلِّيَّاتٌ مُسْلِمَةٌ؛ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ بِلَادَ إِسْلَامٍ بِمَا تُقِيمُهُ الأَقَلِّيَّاتُ المُسْلِمَةُ فِيهَا مِنْ شَعَائِرِ الإِسْلَامِ، أَمَّا بِلَادُ الإِسْلَامِ فَهِيَ البِلَادُ الَّتِي تُقَامُ فِيهَا هَذِهِ الشَّعَائِرُ عَلَى وَجْهٍ عَامٍّ شَامِلٍ.

[١] فَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ لَا يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَ دِينِهِ فِي بَلَدِ الكُفْرِ، فَلَا يَتِمُّ إِسْلَامُهُ إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَهُ إِلَّا بِالهِجْرَةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

[٢] فِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الهِجْرَةِ -أَنَّ المَلَائِكَةَ تَتَوَفَّاهُمْ وَتُوَبِّخُهُمْ، وَتَقُولُ لَهُمْ: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦]، قَالَ البَغَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ[١].

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ ﷺ: **«لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»**[٢].

أَمَّا العَاجِزُونَ عَنِ الهِجْرَةِ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ؛ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الهِجْرَةِ، وَلَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

[١] الظَّاهِرُ أَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَقَلَ هَذَا عَنِ البَغَوِيِّ بِمَعْنَاهُ، هَذَا إِنْ كَانَ نَقَلَهُ مِنَ التَّفْسِيرِ؛ إِذْ لَيْسَ المَذْكُورُ فِي تَفْسِيرِ البَغَوِيِّ(١) لِهَذِهِ الآيَةِ بِهَذَا اللَّفْظِ.

[٢] وَذَلِكَ حِينَ انْتِهَاءِ العَمَلِ الصَّالِحِ المَقْبُولِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام:١٥٨] وَالمُرَادُ بِبَعْضِ الآيَاتِ هُنَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.

(تَتِمَّةٌ) نَذْكُرُ هُنَا حُكْمَ السَّفَرِ إِلَى بِلَادِ الكُفْرِ.

فَنَقُولُ: السَّفَرُ إِلَى بِلَادِ الكُفَّارِ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ:

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الإِنْسَانِ عِلْمٌ يَدْفَعُ بِهِ الشُّبُهَاتِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ دِينٌ يَمْنَعُهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِك.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٦/ ٢٥١).

فَإِنْ لَمْ تَتِمَّ هَذِهِ الشُّرُوطُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ السَّفَرُ إِلَى بِلَادِ الكُفَّارِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الفِتْنَةِ أَوْ خَوْفِ الفِتْنَةِ، وَفِيهِ إِضَاعَةُ المَالِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ يُنْفِقُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً فِي هَذِهِ الأَسْفَارِ.

أَمَّا إِذَا دَعَتِ الحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ لِعِلَاجٍ أَوْ تَلَقِّي عِلْمٍ لَا يُوجَدُ فِي بَلَدِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ وَدِينٌ عَلَى مَا وَصَفْنَا، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ.

وَأَمَّا السَّفَرُ لِلسِّيَاحَةِ فِي بِلَادِ الكُفَّارِ فَهَذَا لَيْسَ بِحَاجَةٍ، وَبِإِمْكَانِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بِلَادٍ إِسْلَامِيَّةٍ، يُحَافِظُ أَهْلُهَا عَلَى شَعَائِرِ الإِسْلَامِ، وَبِلَادُنَا الآنَ -وَالحَمْدُ للهِ- أَصْبَحَتْ بِلَادًا سِيَاحِيَّةً فِي بَعْضِ المَنَاطِقِ، فَبِإِمْكَانِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهَا، وَيَقْضِيَ زَمَنَ إِجَازَتِهِ فِيهَا.

وَأَمَّا الإِقَامَةُ فِي بِلَادِ الكُفَّارِ فَإِنَّ خَطَرَهَا عَظِيمٌ عَلَى دِينِ المُسْلِمِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَسُلُوكِهِ، وَآدَابِهِ، وَقَدْ شَاهَدْنَا وَغَيْرُنَا انْحِرَافَ كَثِيرٍ مِمَّنْ أَقَامُوا هُنَاكَ، فَرَجَعُوا بِغَيْرِ مَا ذَهَبُوا بِهِ، رَجَعُوا فُسَّاقًا، وَبَعْضُهُمْ رَجَعَ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ وَكَافِرًا بِهِ وَبِسَائِرِ الأَدْيَانِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- حَتَّى صَارُوا إِلَى الجُحُودِ المُطْلَقِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ، السَّابِقِينَ مِنْهُمْ وَاللَّاحِقِينَ؛ وَلِهَذَا كَانَ يَنْبَغِي -بَلْ يَتَعَيَّنُ- التَّحَفُّظُ مِنْ ذَلِكَ، وَوَضْعُ الشُّرُوطِ الَّتِي تَمْنَعُ مِنَ الهُوِيِّ فِي تِلْكَ المَهَالِكِ.

فَالإِقَامَةُ فِي بِلَادِ الكُفْرِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ شَرْطَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ:

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: أَمْنُ المُقِيمِ عَلَى دِينِهِ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ العِلْمِ وَالإِيمَانِ، وَقُوَّةِ العَزِيمَةِ مَا يُطَمْئِنُهُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ، وَالحَذَرِ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالزَّيْغِ، وَأَنْ يَكُونَ مُضْمِرًا لِعَدَاوَةِ الكَافِرِينَ وَبُغْضِهِمْ، مُبْتَعِدًا عَنْ مُوَالَاتِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ؛ فَإِنَّ مُوَالَاتَهُمْ وَمَحَبَّتَهُمْ مِمَّا يُنَافِي الإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢] الآيَةَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ**»، وَ«**أَنَّ المَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(١).

وَمَحَبَّةُ أَعْدَاءِ اللهِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ خَطَرًا عَلَى المُسْلِمِ؛ لِأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ تَسْتَلْزِمُ مُوَافَقَتَهُمْ وَاتِّبَاعَهُمْ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ عَدَمَ الإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ**».

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ بِحَيْثُ يَقُومُ بِشَعَائِرِ الإِسْلَامِ بِدُونِ مُمَانِعٍ، فَلَا يُمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالجُمُعَةِ وَالجَمَاعَاتِ إِنْ كَانَ مَعَهُ مَنْ يُصَلِّي جَمَاعَةً وَمَنْ يُقِيمُ الجُمُعَةَ، وَلَا يُمْنَعُ مِنَ الزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالحَجِّ وَغَيْرِهَا مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ، فَإِنْ كَانَ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ لَمْ تَجُزِ الإِقَامَةُ؛ لِوُجُوبِ الهِجْرَةِ حِينَئِذٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦١٦٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**المرء مع من أحب**».

....

قَالَ فِي (المُغْنِي) ص ٤٥٧ جـ ٨ فِي الكَلَامِ عَلَى أَقْسَامِ النَّاسِ فِي الهِجْرَةِ: أَحَدُهَا مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ وَهُوَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهَا وَلَا يُمْكِنُهُ إِظْهَارُ دِينِهِ، وَلَا تُمَكِّنُهُ مِنْ إِقَامَةِ وَاجِبَاتِ دِينِهِ مَعَ المَقَامِ بَيْنَ الكُفَّارِ، فَهَذَا تَجِبُ عَلَيْهِ الهِجْرَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ يَدُلُّ عَلَى الوُجُوبِ، وَلِأَنَّ القِيَامَ بِوَاجِبِ دِينِهِ وَاجِبٌ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، وَالهِجْرَةُ مِنْ ضَرُورَةِ الوَاجِبِ وَتَتِمَّتِهِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. اهـ

وَبَعْدَ تَمَامِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ الأَسَاسِيَّيْنِ تَنْقَسِمُ الإِقَامَةُ فِي دَارِ الكُفَّارِ إِلَى أَقْسَامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: أَنْ يُقِيمَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ، وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الجِهَادِ، فَهِيَ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا، بِشَرْطِ أَنْ تَتَحَقَّقَ الدَّعْوَةُ، وَأَنْ لَا يُوجَدَ مَنْ يَمْنَعُ مِنْهَا، أَوْ مِنَ الاِسْتِجَابَةِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الإِسْلَامِ مِنْ وَاجِبَاتِ الدِّينِ، وَهِيَ طَرِيقَةُ المُرْسَلِينَ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّبْلِيغِ عَنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَقَالَ ﷺ: **«بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»**(١).

القِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يُقِيمَ لِدِرَاسَةِ أَحْوَالِ الكَافِرِينَ وَالتَّعَرُّفِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ فَسَادِ العَقِيدَةِ، وَبُطْلَانِ التَّعَبُّدِ، وَانْحِلَالِ الأَخْلَاقِ، وَفَوْضَوِيَّةِ السُّلُوكِ؛ لِيُحَذِّرَ النَّاسَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنَ الاغْتِرَارِ بِهِمْ، وَيُبَيِّنَ لِلْمُعْجَبِينَ بِهِمْ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ، وَهَذِهِ الإِقَامَةُ نَوْعٌ مِنَ الجِهَادِ أَيْضًا؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ التَّحْذِيرِ مِنَ الكُفْرِ وَأَهْلِهِ، المُتَضَمِّنِ لِلتَّرْغِيبِ فِي الإِسْلَامِ وَهَدْيِهِ؛ لِأَنَّ فَسَادَ الكُفْرِ دَلِيلٌ عَلَى صَلَاحِ الإِسْلَامِ، كَمَا قِيلَ: وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ.

لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ شَرْطٍ: أَنْ يَتَحَقَّقَ مُرَادُهُ بِدُونِ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ مُرَادُهُ بِأَنْ مُنِعَ مِنْ نَشْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ فَلَا فَائِدَةَ مِنْ إِقَامَتِهِ.

وَإِنْ تَحَقَّقَ مُرَادُهُ مَعَ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِثْلَ أَنْ يُقَابِلُوا فِعْلَهُ بِسَبِّ الإِسْلَامِ، وَرَسُولِ الإِسْلَامِ، وَأَئِمَّةِ الإِسْلَامِ -وَجَبَ الكَفُّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨].

وَيُشْبِهُ هَذَا أَنْ يُقِيمَ فِي بِلَادِ الكُفْرِ؛ لِيَكُونَ عَيْنًا لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِيَعْرِفَ مَا يُدَبِّرُوهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ المَكَايِدِ فَيُحْذَرَهُمُ المُسْلِمُونَ، كَمَا أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ إِلَى المُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ لِيَعْرِفَ خَبَرَهُمْ(١).

القِسْمُ الثَّالِثُ: أَنْ يُقِيمَ لِحَاجَةِ الدَّوْلَةِ المُسْلِمَةِ وَتَنْظِيمِ عِلَاقَاتِهَا مَعَ دُوَلِ الكُفْرِ، كَمُوَظَّفِي السِّفَارَاتِ، فَحُكْمُهَا حُكْمُ مَا أَقَامَ مِنْ أَجْلِهِ. فَالمُلْحَقُ الثَّقَافِيُّ مَثَلًا يُقِيمُ لِيَرْعَى شُؤُونَ الطَّلَبَةِ، وَيُرَاقِبَهُمْ، وَيَحْمِلَهُمْ عَلَى التِزَامِ دِينِ الإِسْلَامِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ، فَيَحْصُلُ بِإِقَامَتِهِ مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ، وَيَنْدَرِئُ بِهَا شَرٌّ كَبِيرٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٧٨٨)، من حديث حذيفة ابن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

القِسْمُ الرَّابِعُ: أَنْ يُقِيمَ لِحَاجَةٍ خَاصَّةٍ مُبَاحَةٍ كَالتِّجَارَةِ وَالعِلَاجِ، فَتُبَاحُ الإِقَامَةُ بِقَدْرِ الحَاجَةِ، وَقَدْ نَصَّ أَهْلُ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللهُ عَلَى جَوَازِ دُخُولِ بِلَادِ الكُفْرِ لِلتِّجَارَةِ، وَأَثَرُوا ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

القِسْمُ الخَامِسُ: أَنْ يُقِيمَ لِلدِّرَاسَةِ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَا قَبْلَهَا إِقَامَةٌ لِحَاجَةٍ، لَكِنَّهَا أَخْطَرُ مِنْهَا، وَأَشَدُّ فَتْكًا بِدِينِ المُقِيمِ وَأَخْلَاقِهِ، فَإِنَّ الطَّالِبَ يَشْعُرُ بِدُنُوِّ مَرْتَبَتِهِ وَعُلُوِّ مُرْتَبَةِ مُعَلِّمِيهِ، فَيَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُهُمْ، وَالاقْتِنَاعُ بِآرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ، فَيُقَلِّدُهُمْ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ عِصْمَتَهُ وَهُمْ قَلِيلٌ.

ثُمَّ إِنَّ الطَّالِبَ يَشْعُرُ بِحَاجَتِهِ إِلَى مُعَلِّمِهِ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ وَمُدَاهَنَتِهِ فِيمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ.

وَالطَّالِبُ فِي مَقَرِّ تَعَلُّمِهِ لَهُ زُمَلَاءُ يَتَّخِذُ مِنْهُمْ أَصْدِقَاءَ يُحِبُّهُمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ، وَيَكْتَسِبُ مِنْهُمْ. وَمِنْ أَجْلِ خَطَرِ هَذَا القِسْمِ وَجَبَ التَّحَفُّظُ فِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا قَبْلَهُ، فَيُشْتَرَطُ فِيهِ بِالإِضَافَةِ إِلَى الشَّرْطَيْنِ الأَسَاسِيَّيْنِ شُرُوطٌ:

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الطَّالِبُ عَلَى مُسْتَوًى كَبِيرٍ مِنَ النُّضُوجِ العَقْلِيِّ الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَيَنْظُرُ بِهِ إِلَى المُسْتَقْبَلِ البَعِيدِ.

فَأَمَّا بَعْثُ الأَحْدَاثِ (صِغَارِ السِّنِّ) وَذَوِي العُقُولِ الصَّغِيرَةِ فَهُوَ خَطَرٌ عَظِيمٌ عَلَى دِينِهِمْ، وَخُلُقِهِمْ، وَسُلُوكِهِمْ، ثُمَّ هُوَ خَطَرٌ عَلَى أُمَّتِهِمُ الَّتِي سَيَرْجِعُونَ إِلَيْهَا، وَيَنْفُثُونَ فِيهَا مِنَ السُّمُومِ الَّتِي نَهَلُوهَا مِنْ أُولَئِكَ الكُفَّارِ، كَمَا شَهِدَ وَيَشْهَدُ بِهِ الوَاقِعُ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أُولَئِكُمُ المَبْعُوثِينَ رَجَعُوا بِغَيْرِ مَا ذَهَبُوا بِهِ، رَجَعُوا مُنْحَرِفِينَ فِي دِيَانَاتِهِمْ، وَأَخْلَاقِهِمْ،

وَسُلُوكِهِمْ، وَحَصَلَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مُجْتَمَعِهِمْ مِنَ الضَّرَرِ فِي هَذِهِ الأُمُورِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مُشَاهَدٌ، وَمَا مَثَلُ بَعْثِ هَؤُلَاءِ إِلَّا كَمَثَلِ تَقْدِيمِ النِّعَاجِ لِلكِلَابِ الضَّارِيَةِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الطَّالِبِ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ مَا يَتَمَكَّنُ بِهِ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَمُقَارَعَةِ البَاطِلِ بِالحَقِّ؛ لِئَلَّا يَنْخَدِعَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ البَاطِلِ، فَيَظُنَّهُ حَقًّا، أَوْ يَلْتَبِسَ عَلَيْهِ، أَوْ يَعْجِزَ عَنْ دَفْعِهِ فَيَبْقَى حَيْرَانَ، أَوْ يَتْبَعُ البَاطِلَ. وَفِي الدُّعَاءِ المَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ أَرِنِي الحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنِي البَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ، وَلَا تَجْعَلْهُ مُلْتَبِسًا عَلَيَّ فَأَضِلَّ»[1].

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الطَّالِبِ دِينٌ يَحْمِيهِ وَيَتَحَصَّنُ بِهِ مِنَ الكُفْرِ وَالفُسُوقِ، فَضَعِيفُ الدِّينِ لَا يَسْلَمُ مَعَ الإِقَامَةِ هُنَاكَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ؛ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ المُهَاجِمِ، وَضَعْفِ المُقَاوِمِ، فَأَسْبَابُ الكُفْرِ وَالفُسُوقِ هُنَاكَ قَوِيَّةٌ وَكَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، فَإِذَا صَادَفَتْ مَحَلًّا ضَعِيفَ المُقَاوَمَةِ عَمِلَتْ عَمَلَهَا.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أَنْ تَدْعُوَ الحَاجَةُ إِلَى العِلْمِ الَّذِي أَقَامَ مِنْ أَجْلِهِ، بِأَنْ يَكُونَ فِي تَعَلُّمِهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُوجَدَ لَهُ نَظِيرٌ فِي المَدَارِسِ فِي بِلَادِهِمْ، فَإِنْ كَانَ مِنْ فُضُولِ العِلْمِ الَّذِي لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوْ كَانَ فِي البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ مِنَ المَدَارِسِ نَظِيرُهُ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقِيمَ فِي بِلَادِ الكُفْرِ مِنْ أَجْلِهِ؛ لِمَا فِي الإِقَامَةِ مِنَ الخَطَرِ عَلَى الدِّينِ وَالأَخْلَاقِ، وَإِضَاعَةِ الأَمْوَالِ الكَثِيرَةِ بِدُونِ فَائِدَةٍ.

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٣/ ٣٦٩) بنحوه، وقال العراقي في تخريجه: لم أقف لأوله على أصل اهـ. و ذكره البهوتي في شرح منتهى الإرادات (٣/ ٤٩٧) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفا.



....

الْقِسْمُ السَّادِسُ: أَنْ يُقِيمَ لِلسَّكَنِ، وَهَذَا أَخْطَرُ مِمَّا قَبْلَهُ وَأَعْظَمُ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ بِالاخْتِلَاطِ التَّامِّ بِأَهْلِ الْكُفْرِ، وَشُعُورِهِ بِأَنَّهُ مَوَاطِنٌ مُلْتَزِمٌ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْوَطَنِيَّةُ مِنْ مَوَدَّةٍ وَمُوَالَاةٍ، وَتَكْثِيرٍ لِسَوَادِ الْكُفَّارِ، وَيَتَرَبَّى أَهْلُهُ بَيْنَ أَهْلِ الْكُفْرِ، فَيَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ، وَرُبَّمَا قَلَّدُوهُمْ فِي الْعَقِيدَةِ وَالتَّعَبُّدِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَهُوَ مِثْلُهُ»[1]. وَهَذَا الْحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ السَّنَدِ لَكِنْ لَهُ وِجْهَةٌ مِنَ النَّظَرِ؛ فَإِنَّ الْمُسَاكَنَةَ تَدْعُو إِلَى الْمُشَاكَلَةِ.

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلِمَ؟ قَالَ: «لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا»[2] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَأَكْثَرُ الرُّوَاةِ رَوَوْهُ مُرْسَلًا عَنْ قَيْسِ بْنِ حَازِمٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا -يَعْنِي الْبُخَارِيَّ- يَقُولُ: الصَّحِيحُ حَدِيثُ قَيْسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، مُرْسَلٌ. اهـ.

وَكَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ مُؤْمِنٍ أَنْ يَسْكُنَ فِي بِلَادِ كُفَّارٍ، تُعْلَنُ فِيهَا شَعَائِرُ الْكُفْرِ، وَيَكُونُ الْحُكْمُ فِيهَا لِغَيْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ يُشَاهِدُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ وَيَسْمَعُهُ بِأُذُنَيْهِ وَيَرْضَى بِهِ؟! بَلْ يَنْتَسِبُ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ، وَيَسْكُنُ فِيهَا بِأَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ، وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا كَمَا يَطْمَئِنُّ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب الإقامة بأرض الشرك، رقم (٢٧٨٧)، وعلقه الترمذي: كتاب السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، (٤/ ١٥٦)، من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسُّجود، رقم (٢٦٤٥)، والتِّرمذي: كتاب السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين، رقم (١٦٠٤).



فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ، مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحَجِّ، وَالجِهَادِ، وَالأَذَانِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ[١]، ....

إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الخَطَرِ العَظِيمِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ فِي دِينِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ.

هَذَا مَا تَوَصَّلْنَا إِلَيْهِ فِي حُكْمِ الإِقَامَةِ فِي بِلَادِ الكُفْرِ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ.

[١] يَقُولُ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: لَمَّا اسْتَقَرَّ -أَيِ النَّبِيُّ ﷺ- فِي المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي مَكَّةَ دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ نَحْوَ عَشْرِ سِنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ فِي مَكَّةَ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ وَلَمْ تُفْرَضْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ وَلَا الصِّيَامُ وَلَا الحَجُّ وَلَا غَيْرُهَا مِنْ شَعَائِرِ الإِسْلَامِ.

وَظَاهِرُ كَلَامِ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الزَّكَاةَ فُرِضَتْ أَصْلًا وَتَفْصِيلًا فِي المَدِينَةِ، وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ إِلَى أَنَّ الزَّكَاةَ فُرِضَتْ أَوَّلًا فِي مَكَّةَ، لَكِنَّهَا لَمْ تُقَدَّرْ أَنْصِبَاؤُهَا وَلَمْ يُقَدَّرِ الوَاجِبُ فِيهَا، وَفِي المَدِينَةِ قُدِّرَتِ الأَنْصِبَاءُ، وَقُدِّرَ الوَاجِبُ، وَاسْتَدَلَّ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُ جَاءَتْ آيَاتٌ تُوجِبُ الزَّكَاةَ فِي سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ، مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١] وَمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥].

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: فَاسْتِقْرَارُ الزَّكَاةِ، وَتَقْدِيرُ أَنْصِبَائِهَا، وَمَا يَجِبُ فِيهَا، وَبَيَانُ مُسْتَحِقِّيهَا -كَانَ فِي المَدِينَةِ، وَكَذَلِكَ الأَذَانُ وَالجُمُعَةُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الجَمَاعَةَ كَذَلِكَ لَمْ تُفْرَضْ إِلَّا فِي المَدِينَةِ؛ لِأَنَّ الأَذَانَ الَّذِي فِيهِ الدَّعْوَةُ لِلْجَمَاعَةِ فُرِضَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ.



أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ[1] ....

أَمَّا الزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ فَقَدْ فُرِضَا فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الهِجْرَةِ، وَأَمَّا الحَجُّ فَلَمْ يُفْرَضْ إِلَّا فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ عَلَى القَوْلِ الرَّاجِحِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ العِلْمِ، وَذَلِكَ حِينَ كَانَتْ مَكَّةُ بَلَدَ إِسْلَامٍ بَعْدَ فَتْحِهَا فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الهِجْرَةِ، وَكَذَلِكَ الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ، كُلُّهَا فُرِضَتْ فِي المَدِينَةِ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا، وَإِقَامَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِيهَا.

[١] أَخَذَ -أَيِ النَّبِيُّ ﷺ- عَشْرَ سِنِينَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، فَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَى المُؤْمِنِينَ، اخْتَارَهُ اللهُ لِجِوَارِهِ وَاللَّحَاقِ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

فَابْتَدَأَ بِهِ المَرَضُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي آخِرِ شَهْرِ صَفَرٍ وَأَوَّلِ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ عَاصِبًا رَأْسَهُ، فَصَعِدَ المِنْبَرَ، فَتَشَهَّدَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنِ اسْتَغْفَرَ لِلشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي أُحُدٍ، ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ»** فَفَهِمَهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَبَكَى، وَقَالَ: بِأَبِي وَأُمِّي! نَفْدِيكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، وَأَبْنَائِنَا، وَأَنْفُسِنَا، وَأَمْوَالِنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»** ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ»**(١) وَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة، رقم (٦٦٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، رقم (٤١٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

....

وَلَـمَّا كَانَ يَوْمُ الاِثْنَيْنِ الثَّانِيَ عَشَرَ أَوِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الهِجْرَةِ اخْتَارَهُ اللهُ لِجِوَارِهِ، فَلَمَّا نُزِلَ بِهِ جَعَلَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي مَاءٍ عِنْدَهُ وَيَمْسَحُ وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» ثُمَّ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»[1].

فَتُوُفِّيَ ذَلِكَ اليَوْمَ، فَاضْطَرَبَ النَّاسُ لِذَلِكَ، وَحُقَّ لَهُمْ أَنْ يَضْطَرِبُوا، حَتَّى جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَصَعِدَ المِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران:١٤٤] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

فَاشْتَدَّ بُكَاءُ النَّاسِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ[2]، فَغُسِّلَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي ثِيَابِهِ؛ تَكْرِيمًا لَهُ، ثُمَّ كُفِّنَ بِثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ -أَيْ: لَفَائِفَ- بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ[3]، وَصَلَّى النَّاسُ عَلَيْهِ أَرْسَالًا بِدُونِ إِمَامٍ[4]، ثُمَّ دُفِنَ لَيْلَةَ الأَرْبِعَاءِ[5] بَعْدَ أَنْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ، رقم (٤٤٤٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب في فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٤٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٦٧، ٣٦٦٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب الثياب البيض للكفن، رقم (١٢٦٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في كفن الميت، رقم (٩٤١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٢٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١١٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ. وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ: الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ. بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً[١] وَافْتَرَضَ اللهُ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الجِنِّ وَالإِنْسِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٢] [الأعراف:١٥٨].

وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٣] [المائدة:٣].

تَمَّتْ مُبَايَعَةُ الخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ، فَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ.

[١] بَعَثَهُ اللهُ -أَيْ: أَرْسَلَهُ- إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، أَيْ: جَمِيعًا.

[٢] فِي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا، وَأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَنْ بِيَدِهِ الإِحْيَاءُ وَالإِمَاتَةُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ المُتَوَحِّدُ بِالأُلُوهِيَّةِ، كَمَا هُوَ مُتَوَحِّدٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الآيَةِ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الرَّسُولِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، وَأَنْ نَتَّبِعَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ لِلهِدَايَةِ العِلْمِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ، هِدَايَةِ الإِرْشَادِ، وَهِدَايَةِ التَّوْفِيقِ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَسُولٌ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، وَهُمُ الإِنْسُ وَالجِنُّ، وَسُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ.

[٣] أَيْ أَنَّ دِينَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَمَا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَ لِلأُمَّةِ جَمِيعَ مَا تَحْتَاجُهُ فِي جَمِيعِ شُؤُونِهَا، حَتَّى قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ طَائِرًا يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣).



وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[1] [الزمر:٣٠-٣١]........................

وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِسَلْمَانَ الفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ حَتَّى الخِرَاءَةَ -آدَابَ قَضَاءِ الحَاجَةِ- قَالَ: «نَعَمْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِاليَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ عَظْمٍ»(١).

فَالنَّبِيُّ ﷺ بَيَّنَ كُلَّ الدِّينِ إِمَّا بِقَوْلِهِ، وَإِمَّا بِفِعْلِهِ، وَإِمَّا بِإِقْرَارِهِ ابْتِدَاءً أَوْ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ، وَأَعْظَمُ مَا بَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التَّوْحِيدُ.

وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِلْأُمَّةِ فِي مَعَادِهَا وَمَعَاشِهَا، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَهُوَ شَرٌّ لِلْأُمَّةِ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، وَمَا يَجْهَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ وَيَدَّعِيهِ مِنْ ضِيقٍ فِي الأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِخَلَلِ البَصِيرَةِ، وَقِلَّةِ الصَّبْرِ، وَضَعْفِ الدِّينِ، وَإِلَّا فَإِنَّ القَاعِدَةَ العَامَّةَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَأَنَّ الدِّينَ كُلَّهُ يُسْرٌ وَسُهُولَةٌ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦] فَالحَمْدُ للهِ عَلَى تَمَامِ نِعْمَتِهِ وَإِكْمَالِ دِينِهِ.

[١] فَفِي هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مَيِّتُونَ، وَأَنَّهُمْ سَيَخْتَصِمُونَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ[١]، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ[٢] وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ[٣] وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[٤] [طه:٥٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[٥] [نوح:١٧-١٨].

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[٢] [النجم:٣١]

---

[١] بَيَّنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ أَنَّ النَّاسَ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، يَبْعَثُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلجَزَاءِ، وَهَذَا هُوَ النَّتِيجَةُ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ: أَنْ يَعْمَلَ الإِنْسَانُ لِهَذَا اليَوْمِ يَوْمِ البَعْثِ وَالنُّشُورِ، اليَوْمِ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ أَحْوَالِهِ وَأَهْوَالِهِ مَا يَجْعَلُ القَلْبَ يُنِيبُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَخْشَى هَذَا اليَوْمَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل:١٧-١٨].

وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ إِشَارَةٌ إِلَى الإِيمَانِ بِالبَعْثِ، وَاسْتَدَلَّ الشَّيْخُ لَهُ بِآيَتَيْنِ.

[٢] أَيْ: مِنَ الأَرْضِ خَلَقْنَاكُمْ حِينَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ تُرَابٍ.

[٣] أَيْ: بِالدَّفْنِ بَعْدَ المَوْتِ.

[٤] أَيْ: بِالبَعْثِ يَوْمَ القِيَامَةِ.

[٥] هَذِهِ الآيَةُ مُوَافِقَةٌ تَمَامًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ أَبْدَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَأَعَادَ فِي إِثْبَاتِ المَعَادِ؛ حَتَّى يُؤْمِنَ النَّاسُ بِذَلِكَ، وَيَزْدَادُوا إِيمَانًا، وَيَعْمَلُوا لِهَذَا اليَوْمِ العَظِيمِ، الَّذِي نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ العَامِلِينَ لَهُ، وَمِنَ السُّعَدَاءِ فِيهِ.

[٢] يَعْنِي أَنَّ النَّاسَ بَعْدَ البَعْثِ يُجَازَوْنَ وَيُحَاسَبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[1] [التغابن:٧].

وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠].

فَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، فَضْلًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَامْتِنَانًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ تَفَضَّلَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ، ثُمَّ تَفَضَّلَ مَرَّةً أُخْرَى بِالجَزَاءِ عَلَيْهِ هَذَا الجَزَاءَ الوَاسِعَ الكَثِيرَ، أَمَّا العَمَلُ السَّيِّئُ فَإِنَّ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، لَا يُجَازَى الإِنْسَانُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠] وَهَذَا مِنْ كَمَالِ فَضْلِ اللهِ وَإِحْسَانِهِ.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ الشَّيْخُ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: بِالسُّوأَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾.

[١] مَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٩-٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ



مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٠-١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان:١١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣].

وَاسْتَدَلَّ الشَّيْخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ الآيَةَ.

وَأَمَّا إِقْنَاعُ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ فَبِمَا يَأْتِي:

أَوَّلًا: أَنَّ أَمْرَ البَعْثِ تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ فِي الكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ، وَالشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، وَتَلَقَّتْهُ أُمَمُهُمْ بِالقَبُولِ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَهُ وَأَنْتُم تُصَدِّقُونَ بِمَا يُنْقَلُ إِلَيْكُمْ عَنْ فَيْلَسُوفٍ أَوْ صَاحِبِ مَبْدَأٍ أَوْ فِكْرَةٍ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ مَا بَلَغَهُ الخَبَرُ عَنِ البَعْثِ لَا فِي وَسِيلَةِ النَّقْلِ، وَلَا فِي شَهَادَةِ الوَاقِعِ؟!!

ثَانِيًا: أَنَّ أَمْرَ البَعْثِ قَدْ شَهِدَ العَقْلُ بِإِمْكَانِهِ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

١- كُلُّ أَحَدٍ لَا يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا بَعْدَ العَدَمِ، وَأَنَّهُ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَالَّذِي خَلَقَهُ وَأَحْدَثَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ بِالأَوْلَى، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٢- كُلُّ أَحَدٍ لَا يُنْكِرُ عظَمَةَ خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ؛ لِكِبَرِهِمَا وَبَدِيعِ صَنْعَتِهِمَا، فَالَّذِي خَلَقَهُمَا قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ وَإِعَادَتِهِمْ بِالأَوْلَى.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨١-٨٢].

٣- كُلُّ ذِي بَصَرٍ يُشَاهِدُ الأَرْضَ مُجْدِبَةً مَيِّتَةَ النَّبَاتِ، فَإِذَا نَزَلَ المَطَرُ عَلَيْهَا أَخْصَبَتْ وَحَيِيَ نَبَاتُهَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ المَوْتَى وَبَعْثِهِمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

ثَالِثًا: أَنَّ أَمْرَ البَعْثِ قَدْ شَهِدَ الحِسُّ وَالوَاقِعُ بِإِمْكَانِهِ فِيمَا أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ وَقَائِعِ إِحْيَاءِ المَوْتَى.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ خَمْسَ حَوَادِثَ، مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1] [النساء:١٦٥].

رَابِعًا: أَنَّ الحِكْمَةَ تَقْتَضِي البَعْثَ بَعْدَ المَوْتِ؛ لِتُجَازَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ خَلْقُ النَّاسِ عَبَثًا لَا قِيمَةَ لَهُ، وَلَا حِكْمَةَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَبَيْنَ البَهَائِمِ فَرْقٌ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٥] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٣٨-٤٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

فَإِذَا بُيِّنَتْ هَذِهِ البَرَاهِينُ لِمُنْكِرِي البَعْثِ، وَأَصَرُّوا عَلَى إِنْكَارِهِمْ، فَهُمْ مُكَابِرُونَ مُعَانِدُونَ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.

[١] بَيَّنَ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَهُمْ بِالجَنَّةِ، وَيُنْذِرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ بِالنَّارِ.

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[1] [النساء:١٦٣].

وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ لَهُ حِكَمٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَهَمِّهَا -بَلْ هُوَ أَهَمُّهَا- أَنْ تَقُومَ الحُجَّةُ عَلَى النَّاسِ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُمْ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

وَمِنْهَا أَنَّهُ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؛ فَإِنَّ العَقْلَ البَشَرِيَّ -مَهْمَا كَانَ- لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُدْرِكَ تَفَاصِيلَ مَا يَجِبُ للهِ تَعَالَى مِنَ الحُقُوقِ الخَاصَّةِ بِهِ، وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى مَا للهِ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ الكَامِلَةِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى مَا لَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى؛ وَلِهَذَا أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ؛ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.

وَأَعْظَمُ مَا دَعَا إِلَيْهِ الرُّسُلُ -مِنْ أَوَّلِهِمْ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى آخِرِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ- التَّوْحِيدُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

[١] بَيَّنَ شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣] وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «أَنَّ النَّاسَ



وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولًا[١] مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ، يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[٢] [النحل:٣٦].

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ. قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- الطَّاغُوتُ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ[٣]

يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»(١) فَلَا رَسُولَ قَبْلَ نُوحٍ، وَبِهَذَا نَعْلَمُ خَطَأَ المُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلَ نُوحٍ، بَلِ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ إِدْرِيسَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَآخِرُ الأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٠] فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَمَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ، كَافِرٌ، مُرْتَدٌّ عَنِ الإِسْلَامِ.

[١] أَيْ: أَنَّ اللهَ بَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] وَقَالَ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

[٢] هَذَا هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

[٣] أَرَادَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذَا أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاجْتِنَابِ الطَّاغُوتِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَدْ فَرَضَ اللهُ ذَلِكَ عَلَى عِبَادَةِ، وَالطَّاغُوتُ مُشْتَقٌّ مِنَ الطُّغْيَانِ، وَالطُّغْيَانُ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١] يَعْنِي: لَمَّا زَادَ المَاءُ عَنِ الحَدِّ المُعْتَادِ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ، يَعْنِي السَّفِينَةَ.

وَاصْطِلَاحًا: أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَعْرِيفِهِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ القَيِّمِ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ -أَيِ الطَّاغُوتُ-: «كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ» وَمُرَادُهُ بِالمَعْبُودِ وَالمَتْبُوعِ وَالمُطَاعِ غَيْرُ الصَّالِحِينَ، أَمَّا الصَّالِحُونَ فَلَيْسُوا طَوَاغِيتَ وَإِنْ عُبِدُوا، أَوِ اتُّبِعُوا، أَوْ أُطِيعُوا.

فَالأَصْنَامُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ طَوَاغِيتُ. وَعُلَمَاءُ السُّوءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الضَّلَالِ وَالكُفْرِ، أَوْ يَدْعُونَ إِلَى البِدَعِ، أَوْ إِلَى تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ، أَوْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ -طَوَاغِيتُ. وَالَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لِوُلَاةِ الأَمْرِ الخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ بِنُظُمٍ يَسْتَوْرِدُونَهَا مُخَالِفَةٍ لِنِظَامِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ طَوَاغِيتُ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ تَجَاوَزُوا حَدَّهُمْ، فَإِنَّ حَدَّ العَالِمِ أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِأَنَّ العُلَمَاءَ حَقِيقَةً وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، يَرِثُونَهُمْ فِي أُمَّتِهِمْ عِلْمًا، وَعَمَلًا، وَأَخْلَاقًا، وَدَعْوَةً، وَتَعْلِيمًا.

فَإِذَا تَجَاوَزُوا هَذَا الحَدَّ، وَصَارُوا يُزَيِّنُونَ لِلحُكَّامِ الخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ بِمِثْلِ هَذِهِ النُّظُمِ فَهُمْ طَوَاغِيتُ؛ لِأَنَّهُمْ تَجَاوَزُوا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ مِنْ مُتَابَعَةِ الشَّرِيعَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَوْ مُطَاعٍ» فَيُرِيدُ بِهِ الأُمَرَاءَ الَّذِينَ يُطَاعُونَ شَرْعًا أَوْ قَدَرًا،

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

فَالأُمَرَاءُ يُطَاعُونَ شَرْعًا إِذَا أَمَرُوا بِمَا لَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَفِي هَذِهِ الحَالِ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ طَوَاغِيتُ، وَالوَاجِبُ لَهُمْ عَلَى الرَّعِيَّةِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَطَاعَتُهُمْ لِوُلَاةِ الأَمْرِ فِي هَذَا الحَالِ بِهَذَا القَيْدِ طَاعَةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ نُلَاحِظَ حِينَ نُنَفِّذُ مَا أَمَرَ بِهِ وَلِيُّ الأَمْرِ مِمَّا تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيهِ أَنَّنَا فِي ذَلِكَ نَتَعَبَّدُ للهِ تَعَالَى وَنَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ؛ حَتَّى يَكُونَ تَنْفِيذُنَا لِهَذَا الأَمْرِ قُرْبَةً إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُلَاحِظَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وَأَمَّا طَاعَةُ الأُمَرَاءِ قَدَرًا: فَإِنَّ الأُمَرَاءَ إِذَا كَانُوا أَقْوِيَاءَ فِي سُلْطَتِهِمْ فَإِنَّ النَّاسَ يُطِيعُونَهُمْ بِقُوَّةِ السُّلْطَانِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِوَازِعِ الإِيمَانِ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ وَلِيِّ الأَمْرِ تَكُونُ بِوَازِعِ الإِيمَانِ، وَهَذِهِ هِيَ الطَّاعَةُ النَّافِعَةُ، النَّافِعَةُ لِوُلَاةِ الأَمْرِ، وَالنَّافِعَةُ لِلنَّاسِ أَيْضًا، وَقَدْ تَكُونُ الطَّاعَةُ بِوَازِعِ السُّلْطَانِ، بِحَيْثُ يَكُونُ قَوِيًّا يَخْشَى النَّاسُ مِنْهُ وَيَهَابُونَهُ؛ لِأَنَّهُ يُنَكِّلُ بِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ.

وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ مَعَ حُكَّامِهِمْ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ لَهُمْ أَحْوَالٌ:

الحَالُ الأُولَى: أَنْ يَقْوَى الوَازِعُ الإِيمَانِيُّ وَالرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ، وَهَذِهِ أَكْمَلُ الأَحْوَالِ وَأَعْلَاهَا.

الحَالُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَضْعُفَ الوَازِعُ الإِيمَانِيُّ وَالرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ، وَهَذِهِ أَدْنَى الأَحْوَالِ وَأَخْطَرُهَا عَلَى المُجْتَمَعِ، عَلَى حُكَّامِهِ وَمَحْكُومِيهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ضَعُفَ الوَازِعُ الإِيمَانِيُّ وَالرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ حَصَلَتِ الفَوْضَى الفِكْرِيَّةُ وَالخُلُقِيَّةُ وَالعَمَلِيَّةُ.



وَالطَّوَاغِيتُ[١] كَثِيرَةٌ، وَرُؤُوسُهُمْ[٢] خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ[٣] لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ[٤]، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ[٥]، ....

الحَالُ الثَّالِثَةُ: أَنْ يَضْعُفَ الوَازِعُ الإِيمَانِيُّ وَيَقْوَى الرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ وُسْطَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَوِيَ الرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ صَارَ أَصْلَحَ لِلأُمَّةِ فِي المَظْهَرِ، فَإِذَا اخْتَفَتْ قُوَّةُ السُّلْطَانِ فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حَالِ الأُمَّةِ وَسُوءِ عَمَلِهَا.

الحَالُ الرَّابِعَةُ: أَنْ يَقْوَى الوَازِعُ الإِيمَانِيُّ وَيَضْعُفَ الرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ، فَيَكُونُ المَظْهَرُ أَدْنَى مِنْهُ فِي الحَالِ الثَّالِثَةِ، لَكِنَّهُ فِيمَا بَيْنَ الإِنْسَانِ وَرَبِّهِ أَكْمَلُ وَأَعْلَى.

[١] جَمْعُ طَاغُوتٍ، وَسَبَقَ تَفْسِيرُهُ.

[٢] أَيْ: زُعَمَاؤُهُمْ وَمُقَلِّدُوهُمْ خَمْسَةٌ.

[٣] إِبْلِيسُ: هُوَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ اللَّعِينُ، الَّذِي قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص:٧٨] وَكَانَ إِبْلِيسُ مَعَ المَلَائِكَةِ فِي صُحْبَتِهِمْ، يَعْمَلُ بِعَمَلِهِمْ، وَلَمَّا أُمِرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ظَهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الخُبْثِ وَالإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ، فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ، فَطُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

[٤] أَيْ: عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهُوَ رَاضٍ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِنَّهُ مِنْ رُؤُوسِ الطَّوَاغِيتِ -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- وَسَوَاءٌ عُبِدَ فِي حَيَاتِهِ أَوْ بَعْدَ مَمَاتِهِ إِذَا مَاتَ وَهُوَ رَاضٍ بِذَلِكَ.

[٥] أَيْ: مَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّهُ مِنْ رُؤُوسِ الطَّوَاغِيتِ، سَوَاءٌ أُجِيبَ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ أَمْ لَمْ يُجَبْ.

وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ[١]، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ[٢] ....

[١] الغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ الإِنْسَانِ، وَهُوَ نَوْعَانِ:

وَاقِعٌ، وَمُسْتَقْبَلٌ، فَغَيْبُ الوَاقِعِ نِسْبِيٌّ، يَكُونُ لِشَخْصٍ مَعْلُومًا وَلِآخَرَ مَجْهُولًا، وَغَيْبُ المُسْتَقْبَلِ حَقِيقِيٌّ، لَا يَكُونُ مَعْلُومًا لِأَحَدٍ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ، أَوْ مَنْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنَ الرُّسُلِ، فَمَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

وَإِذَا كَانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَأْمُرُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُعْلِنَ لِلْمَلَأِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ مَنِ ادَّعَى عِلْمَ الغَيْبِ فَقَدْ كَذَّبَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَرَسُولَهُ فِي هَذَا الخَبَرِ.

وَنَقُولُ لِهَؤُلَاءِ: كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَعْلَمُوا الغَيْبَ وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ؟! هَلْ أَنْتُمْ أَشْرَفُ أَمِ الرَّسُولُ ﷺ؟! فَإِنْ قَالُوا: نَحْنُ أَشْرَفُ مِنَ الرَّسُولِ، كَفَرُوا بِهَذَا القَوْلِ، وَإِنْ قَالُوا: هُوَ أَشْرَفُ، فَنَقُولُ: لِمَاذَا يُحْجَبُ عَنْهُ الغَيْبُ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَهُ؟!

وَقَدْ قَالَ عَزَّوَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧] وَهَذِهِ آيَةٌ ثَانِيَةٌ تَدُلُّ عَلَى كُفْرِ مَنِ ادَّعَى عِلْمَ الغَيْبِ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُعْلِنَ لِلْمَلَأِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام:٥٠].

[٢] الحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ تَنْفِيذٌ لِحُكْمِ اللهِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ، وَكَمَالُ مُلْكِهِ وَتَصَرُّفِهِ؛ وَلِهَذَا سَمَّى اللهُ تَعَالَى المَتْبُوعِينَ فِي غَيْرِ مَا أَنْزَلَ

اللهُ تَعالَى أَرْبَابًا لِمُتَّبِعِيهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

فَسَمَّى اللهُ تَعَالَى المَتْبُوعِينَ أَرْبَابًا؛ حَيْثُ جُعِلُوا مُشَرِّعِينَ مَعَ اللهِ تَعَالَى، وَسَمَّى المُتَّبِعِينَ عُبَّادًا؛ حَيْثُ إِنَّهُمْ ذَلُّوا لَهُمْ وَأَطَاعُوهُمْ فِي مُخَالَفَةِ حُكْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَدْ قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ**»[١].

إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَرَدَتْ فِيهِ آيَاتٌ بِنَفْيِ الإِيمَانِ عَنْهُ، وَآيَاتٌ بِكُفْرِهِ، وَظُلْمِهِ، وَفِسْقِهِ.

فَأَمَّا القِسْمُ الأَوَّلُ:

فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).



....

إذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٠-٦٥].

فَوَصَفَ اللهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمُدَّعِينَ لِلإِيمَانِ وَهُمْ مُنَافِقُونَ بِصِفَاتٍ:

الأُولَى: أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَهُوَ كُلُّ مَا خَالَفَ حُكْمَ اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ؛ لِأَنَّ مَا خَالَفَ حُكْمَ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ طُغْيَانٌ وَ اعْتِدَاءٌ عَلَى حُكْمِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ وَهُوَ اللهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ صَدُّوا وَأَعْرَضُوا.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمْ إِذَا أُصِيبُوا بِمُصِيبَةٍ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ -وَمِنْهَا أَنْ يُعْثَرَ عَلَى صَنِيعِهِمْ- جَاءُوا يَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا إِلَّا الإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ، كَحَالِ مَنْ يَرْفُضُ الْيَوْمَ أَحْكَامَ الإِسْلَامِ، وَيَحْكُمُ بِالقَوَانِينِ الْمُخَالِفَةِ لَهَا؛ زَعْمًا مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الإِحْسَانُ الْمُوَافِقُ لِأَحْوَالِ الْعَصْرِ.

ثُمَّ حَذَّرَ -سُبْحَانَهُ- هَؤُلَاءِ الْمُدَّعِينَ لِلإِيمَانِ، الْمُتَّصِفِينَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ بِأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَا يُكِنُّونَهُ مِنْ أُمُورٍ تُخَالِفُ مَا يَقُولُونَ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَعِظَهُمْ، وَيَقُولَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا.

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُطَاعَ الْمَتْبُوعَ لَا غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ، مَهْمَا قَوِيَتْ أَفْكَارُهُمْ، وَاتَّسَعَتْ مَدَارِكُهُمْ، ثُمَّ أَقْسَمَ تَعَالَى بِرُبُوبِيَّتِهِ لِرَسُولِهِ الَّتِي

هِيَ أَخصُّ أَنْوَاعِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالَّتِي تَتَضَمَّنُ الإِشَارَةَ إِلَى صِحَّةِ رِسَالَتِهِ ﷺ، أَقْسَمَ بِهَا قَسَمًا مُؤَكَّدًا أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ فِي كُلِّ نِزَاعٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّانِي: أَنْ تَنْشَرِحَ الصُّدُورُ بِحُكْمِهِ، وَلَا يَكُونَ فِي النُّفُوسِ حَرَجٌ وَضِيقٌ مِنْهُ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَحْصُلَ التَّسْلِيمُ بِقَبُولِ مَا حَكَمَ بِهِ، وَتَنْفِيذِهِ بِدُونِ تَوَانٍ أَوِ انْحِرَافٍ.

وَأَمَّا القِسْمُ الثَّانِي:

فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧].

وَهَلْ هَذِهِ الأَوْصَافُ الثَّلَاثَةُ تَتَنَزَّلُ عَلَى مَوْصُوفٍ وَاحِدٍ؟ بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَهُوَ كَافِرٌ ظَالِمٌ فَاسِقٌ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَصَفَ الكَافِرِينَ بِالظُّلْمِ وَالفِسْقِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨٤].

فَكُلُّ كَافِرٍ ظَالِمٌ فَاسِقٌ، أَوْ هَذِهِ الأَوْصَافُ تَتَنَزَّلُ عَلَى مَوْصُوفِينَ بِحَسَبِ الحَامِلِ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ؟ هَذَا هُوَ الأَقْرَبُ عِنْدِي. وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَنَقُولُ: مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ اسْتِخْفَافًا بِهِ، أَوِ احْتِقَارًا، أَوِ اعْتِقَادًا أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ مِنْهُ وَأَنْفَعُ لِلخَلْقِ، أَوْ مِثْلُهُ - فَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا مُخْرِجًا عَنِ المِلَّةِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ

....

يَضَعُونَ لِلنَّاسِ تَشْرِيعَاتٍ تُخَالِفُ التَّشْرِيعَاتِ الإِسْلَامِيَّةَ؛ لِتَكُونَ مِنْهَاجًا يَسِيرُ النَّاسُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَضَعُوا تِلْكَ التَّشْرِيعَاتِ المُخَالِفَةَ لِلشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ إِلَّا وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا أَصْلَحُ وَأَنْفَعُ لِلخلْقِ؛ إِذْ مِنَ المَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ العَقْلِيَّةِ، وَالجِبلَّةِ الفِطْرِيَّةِ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَعْدِلُ عَنْ مِنْهَاجٍ إِلَى مِنْهَاجٍ يُخَالِفُهُ إِلَّا وَهُوَ يَعْتَقِدُ فَضْلَ مَا عَدَلَ إِلَيْهِ وَنَقْصَ مَا عَدَلَ عَنْهُ.

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَهُوَ لَمْ يَسْتَخِفَّ بِهِ، وَلَمْ يَحْتَقِرْهُ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ مِنْهُ لِنَفْسِهِ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ -فَهَذَا ظَالِمٌ وَلَيْسَ بِكَافِرٍ. وَتَخْتَلِفُ مَرَاتِبُ ظُلْمِهِ بِحَسَبِ المَحْكُومِ بِهِ وَوَسَائِلِ الحُكْمِ.

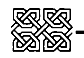
وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ لَا اسْتِخْفَافًا بِحُكْمِ اللهِ، وَلَا احْتِقَارًا، وَلَا اعْتِقَادًا أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ، وَأَنْفَعُ لِلخَلْقِ، أَوْ مِثْلُهُ، وَإِنَّمَا حَكَمَ بِغَيْرِهِ مُحَابَاةً لِلمَحْكُومِ لَهُ، أَوْ مُرَاعَاةً لِرِشْوَةٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا فَهَذَا فَاسِقٌ، وَلَيْسَ بِكَافِرٍ، وَتَخْتَلِفُ مَرَاتِبُ فِسْقِهِ بِحَسَبِ المَحْكُومِ بِهِ وَوَسَائِلِ الحُكْمِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَنِ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ: إِنَّهُمْ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بَدَّلُوا دِينَ اللهِ، فَيَتَّبِعُونَهُمْ عَلَى التَّبْدِيلِ، وَيَعْتَقِدُونَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ، وَتَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللهُ؛ اتِّبَاعًا لِرُؤَسَائِهِمْ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا دِينَ الرُّسُلِ - فَهَذَا كُفْرٌ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ شِرْكًا.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠).



وَالدَّلِيلُ[١] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ[٢] قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ ....

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ بِتَحْلِيلِ الحَرَامِ وَتَحْرِيمِ الحَلَالِ -كَذَا العِبَارَةُ المَنْقُولَةُ عَنْهُ- ثَابِتًا، لَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ المَعَاصِي الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعَاصٍ، فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ حُكْمُ أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ.

وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ المَسَائِلِ الَّتِي تُعْتَبَرُ تَشْرِيعًا عَامًّا وَالمَسْأَلَةِ المُعَيَّنَةِ الَّتِي يَحْكُمُ فِيهَا القَاضِي بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ لِأَنَّ المَسَائِلَ الَّتِي تُعْتَبَرُ تَشْرِيعًا عَامًّا لَا يَتَأَتَّى فِيهَا التَّقْسِيمُ السَّابِقُ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ القِسْمِ الأَوَّلِ فَقَطْ؛ لِأَنَّ هَذَا المُشَرِّعَ تَشْرِيعًا يُخَالِفُ الإِسْلَامَ إِنَّمَا شَرَّعَهُ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ أَصْلَحُ مِنَ الإِسْلَامِ وَأَنْفَعُ لِلعِبَادِ، كَمَا سَبَقَتِ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ -أَعْنِي مَسْأَلَةَ الحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ- مِنَ المَسَائِلِ الكُبْرَى، الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا حُكَّامُ هَذَا الزَّمَانِ، فَعَلَى المَرْءِ أَنْ لَا يَتَسَرَّعَ فِي الحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الحَقُّ؛ لِأَنَّ المَسْأَلَةَ خَطِيرَةٌ -نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ لِلْمُسْلِمِينَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ وَبِطَانَتَهُمْ- كَمَا أَنَّ عَلَى المَرْءِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ العِلْمَ أَنْ يُبَيِّنَهُ لِهَؤُلَاءِ الحُكَّامِ؛ لِتَقُومَ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَتَتَبَيَّنَ المَحَجَّةُ فَيَهْلَكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلَا يَحْقِرَنَّ نَفْسَهُ عَنْ بَيَانِهِ، وَلَا يَهَابَنَّ أَحَدًا فِيهِ؛ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

[١] أَيْ: عَلَى وُجُوبِ الحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَالكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ.

[٢] لَا إِكْرَاهَ عَلَى الدِّينِ؛ لِظُهُورِ أَدِلَّتِهِ وَبَيَانِهَا وَوُضُوحِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ فَإِذَا تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ سَلِيمَةٍ لَا بُدَّ أَنْ تَخْتَارَ الرُّشْدَ عَلَى الغَيِّ.

فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ[١] فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[٢] [البقرة:٢٥٦]، وَهَذَا مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَفِي الحَدِيثِ «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ[٣] وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ[٤] وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[٥].

---

[١] بَدَأَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِالكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ قَبْلَ الإِيمَانِ بِاللهِ؛ لِأَنَّ مِنْ كَمَالِ الشَّيْءِ إِزَالَةُ المَوَانِعِ قَبْلَ وُجُودِ الثَّوَابِتِ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ.

[٢] أَيْ: تَمَسَّكَ بِهَا تَمَسُّكًا تَامًّا، وَالعُرْوَةُ الوُثْقَى هِيَ الإِسْلَامُ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: «تَمَسَّكَ» لِأَنَّ الاِسْتِمْسَاكَ أَقْوَى مِنَ التَّمَسُّكِ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَتَمَسَّكُ وَلَا يَسْتَمْسِكُ.

[٣] أَرَادَ المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- الاِسْتِدْلَالَ بِهَذَا الحَدِيثِ(١) عَلَى أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ رَأْسًا، فَرَأْسُ الأَمْرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ الإِسْلَامُ.

[٤] لِأَنَّهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِهَا؛ وَلِهَذَا كَانَ القَوْلُ الرَّاجِحُ كُفْرَ تَارِكِ الصَّلَاةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ الإِسْلَامُ.

[٥] أَيْ: أَعْلَاهُ وَأَكْمَلُهُ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أَصْلَحَ نَفْسَهُ، حَاوَلَ إِصْلَاحَ غَيْرِهِ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ لِيَقُومَ الإِسْلَامُ، وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَصَارَ ذِرْوَةَ السَّنَامِ؛ لِأَنَّ بِهِ عُلُوَّ الإِسْلَامِ عَلَى غَيْرِهِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



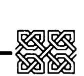
وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ[١].

---

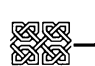
[١] خَتَمَ شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- رِسَالَتَهُ هَذِهِ بِرَدِّ العِلْمِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَبِهَذَا انْتَهَتِ الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُثِيبَ مُؤَلِّفَهَا أَحْسَنَ ثَوَابٍ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَنَا نَصِيبًا مِنْ أَجْرِهَا وَثَوَابِهَا، وَأَنْ يَجْمَعَنَا وَإِيَّاهُ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.





فهرس الأحاديث والآثار







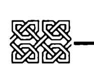


فهرس الفوائد

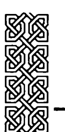
الفائدة	الصفحة











فهرس الموضوعات







